النادي
الأدبي
بالرياض

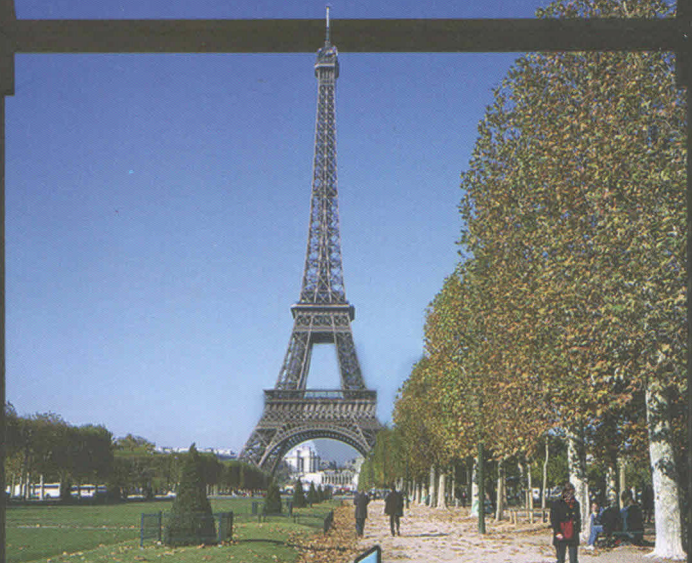

مطلوع في باريس

محمد ناصر العبودي

ح النادي الأدبي بالرياض، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العبودي، محمد بن ناصر
مطوع في باريس./ محمد بن ناصر العبودي.- الرياض، ١٤٢٩هـ
١١٢ ص؛ ١٤×٢١سم
ردمك: ١-٦٦-٦٢١-٩٩٦٠-٩٧٨
١- القصص العربية - السعودية
أ. العنوان
ديوي ٨١٣,٠٣٩٥٣١ ١٤٢٩/٥٦٢٥

رقم الإيداع: ١٤٢٩/٥٦٢٥
ردمك: ١-٦٦-٦٢١-٩٩٦٠-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة للنادي الأدبي بالرياض

الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

مطوع في باريس

محمد بن ناصر العبودي

تمهيد

هذه قصة (مطوع)، وهو طالب العلم المتدين، ولد في بلدة العامرة في وسط الجزيرة العربية قبل منتصف القرن الرابع عشر الهجري، ثم سافر برفقة والده المريض الذي لم يكن في بلدته مستشفى يعالجه، فأرسلته الحكومة على نفقتها إلى باريس للعلاج، ولكنه وجد في باريس ما لم يخطر بباله من حياة منافية كل المنافاة للحياة التي كان يحياها في بلدته، لذلك لم يحتمل عقله ذلك الفرق، ورأى ببصره خلاف ما ينبغي أن تكون عليه بصيرته حتى عاد بصحبة والده بعد أن خف الوالد من مرضه شخصاً آخر في تصوره للأشياء والمثل التي كان يؤمن بها قبل ذهابه إلى باريس، ثم ما علق في ذهنه من الحياة الفرنسية المنافية للحياة التي نشأ عليها.

وقد حاول المؤلف أن يرويها للقارئ الكريم على ما هي عليه؛ لأن وظيفة كاتب القصة هي: أن يروي لا أن يرى، وللقارئ أن يرى في ذلك غير ذلك – على أن الرواية يكون فيها في بعض الأحيان من العبرة والعظة أكثر مما في الرأي.

التحول الكبير

بينما كانت الحياة تسير معتادة أو شبه معتادة في بيت منصور المنثني وبمن في بيته في قرية العامرة، كان التحول الكبير في المملكة العربية السعودية الذي سببه اكتشاف النفط يسير بشكل غير معتاد، ويتوسع أكثر فأكثر على الأيام.

كما بدأ مع هذا التحول إنشاء بعض المرافق ودوائر الخدمات الضرورية مثل المدارس الابتدائية المحدودة العدد، والمستوصفات التي أخذت تقدم بعض أنواع العلاج البسيطة في المدن.

حتى كان في عام ١٣٧٠هـ حين مرض منصور المنثني بمرض لم يستطيع طبيب المستوصف الموجود في بلدته أن يعالجه، فامتد به المرض، واشتد عليه، ولم يفد الطب الشعبي فيه أيضاً الذي أهم ما فيه الكي، والحجامة.

لقد امتد المرض بمنصور المنثني واشتد حتى صعب أمره على أقربائه وأصدقائه، ومنهم قاضي البلدة الشيخ إبراهيم الذي كان إمام مسجد الحي الذي يسكن فيه منصور المنثني، وهو شيخ ابنه (ثني) علت منزلته في طلب العلم حتى عين قاضياً في البلدة بناء على طلب من أهلها، وترشيح من كبار المشايخ الذين استشارهم ولي الأمر في ذلك فأخبروه بأنهم يعرفونه بالفقه والتدين.

كان القاضي إبراهيم قد علم بأن الحكومة ترسل بعض المحتاجين

إلى العلاج في الخارج ممن تقتنع بحاجتهم للعلاج، أو يشفع لهم عندها من تثق في شفاعتهم.

فسأل طبيب المستوصف الموجود في المنطقة، وهو سوري الجنسية عن البلد الذي هو أحسن في العلاج في الخارج فأجابه الطبيب بأنه باريس.

وهكذا أرسل القاضي إبراهيم إلى ولي الأمر برقيته يشرح فيها حالة منصور المنثني، وأنه من أهل الديانة والأمانة وممن لا يستطيعون العلاج في الخارج على حسابهم الخاص، وأن طبيب المنطقة قد أفاد بأن علاجه لا يكون مجدياً إلا في الخارج، والتمس أن يصدر الأمر بإركابه إلى هناك مع مرافقه وهو ابنه ثني، وأن يعالج على حساب الدولة في باريس.

وقد كانت استجابة ولي الأمر لطلب القاضي سريعة وإيجابية؛ إذ تلقى برقية بالموافقة على ذلك، وأن مديرية الصحة العامة قد أُبْلِغَتْ به، وأن السفارة السعودية في باريس ستتولى الإشراف على علاجه، وهكذا أسرع الشيخ إبراهيم إلى منصور المنثني يزف إليه البشرى بذلك غير أن منصوراً لم يكن يتصور أن العلاج هناك سيفيده مثل ما كان القاضي يتخيل، كما كان رغم ما يعانيه من آلام يحتسب الأجر من الله تعالى على آلامه تلك، ويلهج بالدعاء إليه تعالى، أن يرزقه الصبر والاحتساب على ما ابتلاه به من مرض.

غير أن القاضي استعان ببعض الأصدقاء على إقناعه بالسفر، وبأن العلاج في الخارج هو أمر مطلوب ومفيد.

كما استعان على ذلك بتلميذه (ثني) ابن منصور الذي كان قد بدأ يسمع عن علاج الغربيين، وطبهم المتقدم، ومدنيتهم التي ظن أن فيها ما لم يكن يخطر على باله هو وأمثاله من الذين نشأوا بعيداً عنها.

وقد ساعده على أن يعتقد ذلك في ذهنه ما كان قد علمه يقيناً من الذين كانوا قد سافروا إلى الظهران حيث يعمل الأمريكيون في صناعة الزيت، ثم عادوا من الظهران يحدثون بني قومهم وذويهم بما شاهدوه لدى الأمريكيين من نظام في العمل، ونظافة في السكن والملبس، وأشياء أخرى من تقاليدهم الغربية، بعضها لا يذكرونه إلا بأن يشفعوا ذكره بالاستعاذة بالله منه في أول الجملة، وآخرها مثل بروز نسائهم كما يبرز الرجال، وعملهن كما يعملون.

ولكن الأخبار المثيرة سواء كانت محبوبة أم مكروهة تسير في الناس وتجد بينهم من يتناقلونها، بل ويبحثون عنها لينقلوها ويشيعوها.

وهم إذا فعلوا ذلك لا بد أن يضيفوا إليها من المبالغات والحواشي والتهميشات ما يجعلها أكثر إثارة، وأكثر دخولاً في النفوس.

وكان من الذين بلغتهم هذه الأخبار فعلقت في أذهانهم، وتطلعوا إلى المزيد منها (ثني بن منصور المنثني).

ولذلك وجدت فكرة علاج والده في أوروبا ومرافقته إلى تلك البلاد هوى في نفسه، إضافة إلى ما يأمله من شفاء والده الذي يحبه حباً عظيماً، ويؤلمه بل يفزعه أن يراه يتألم، دون أن يكون بيده أن يفعل له شيئاً بعد أن عجز الطب الشعبي من شفائه.

السفـــر

سافر ثني بن منصور بأبيه منصور على ظهر سيارة من سيارات النقل كانت قد مرت بقريتهم تحمل منها ومن المنطقة التي حولها تمراً وسمناً إلى مدينة جدة.

ولم تكن حالة منصور المنثني تسمح له بأن يبقى في ظهر الناقلة جالساً طول الوقت ممسكاً بالجانب الخشبي من حوض السيارة كما يفعل الأصحاء، فكان أن وضع له ابنه حشية ووسائد كان ينام عليها حتى أتعبته حركة السيارة غير المنتظمة، في ذلك الطريق الذي لم يكن مسفلتاً بل ولا ممهداً، وإنما كان طريقاً أرضياً تسير عليه السيارة كما كانت الإبل تسير في الصحراء.

فهم في ذلك الوقت لم يكونوا يرون فرقاً بين البعير والسيارة من هذه الناحية؛ بل لو حدثهم محدث بأن الطريق التي تسير عليها السيارة ينبغي أن تكون غير الطريق التي يسير عليها البعير لم يصدقوا ذلك، وربما حكموا بفساد عقله وضلال تخيله، لأنه عندهم كمن يقول: إنه ينبغي أن يمهد الخلاء كله حتى تسير عليه الإبل؛ ذلك لأن البرية كلها طريق صالح للإبل.

وشيء آخر جعلهم لا يتصورون ذلك؛ بل لا يتطلعون إلى أكثر راحة من السير بسيارة نقل على طريق غير ممهد هو أنهم كانوا قد اعتادوا على قطع الطريق على الإبل ما بين المنطقة التي فيها قريتهم

(العامرية) وبين مكة المكرمة التي كانوا يقصدونها للحج أو للتجارة في عشرين يوماً، مع ما ينالهم في تلك المدة الطويلة من تقلب الجو بسمومه وشمسه المحرقة في القيظ، وزمهريره وبرده الشديد في الشتاء، وما يحفل به الطريق من دواب الأرض وهوامها.

وذلك إلى جانب ما كان يحدثهم به من كانوا قبلهم ممن قد عاشوا في أزمان انفلات الحكم، وعدم الأمن، وأن الأعراب واللصوص والمنتهبين كانوا يترصدون لهم في الطرق، ويهجمون عليهم، وكان الذي يصاب بماله وتسلم نفسه ربما لا يعد ذلك مصيبة كبرى رغم قلة المال وندرة الثروة، ولكن (ويلاً أهون من ويليين) كما كان العرب القدماء يقولون.

فكان الواحد منهم إذا ركب في سيارة نقل، وقطع المسافة إلى مكة المكرمة في ثلاثة أيام على طريق غير ممهد عد ذلك نعمة من نعم الله التي ينبغي شكرها حتى لا تزول.

ورغم ما في الطريق من محطات قليلة قد يجد فيها المرء ما يحتاج إلى صنعه من طعام أو قهوة، إلا أنهم حملوا ما يحتاجون إليه من مؤونة السفر، وما يحتاج إليه إعداد الطعام من أوانٍ وأوعية كان أحد رفقائهم المسافرين قد تكفل بإحضارها؛ لأنه كان ينوي عودة عاجلة من الحجاز، فكان يحتاج إليها في الإياب أيضاً.

كان سفرهم في يوم من أيام الربيع معتدل، وقد ابتدأوا السفر في أول النهار، فلما ارتفع الضحى كانوا قد وصلوا مورد ماء في

الصحراء ليس عليه أحد، فأوقفوا سيارتهم ليتزودوا منه الماء لسفرهم، فأسرع الشبان منهم بالنزول من السيارة، وأنزلوا الدلو وأخذوا يخرجون الماء من البئر ويملأون القرب حتى ملأوا أربعاً منها.

ثم واصلوا سيرهم إلى الظهر، حيث اختاروه موضعاً في البرية ليس به أنيس، وقد حملهم على اختياره كثرة الشجر الذي يأخذون منه الحطب.

فأوقفوا سيارتهم، وأسرع بعضهم بإيقاد النار، وأسرع الآخرون بجمع الحطب من الأرض يضعونه عليها لتزيد اشتعالاً.

أما أحد الذين مرنوا على الأسفار، فإنه قد نصب القدر، وملأ أواني القهوة بالماء.

وكان سائق السيارة من أهل الحجاز الذين يستصعبون مثل هذه الأشياء، فأخرج (دافوره) أي: موقد الغاز يريد أن يصنع له الغداء، والشاي منفرداً، فامتنع الركاب من ذلك، ومنعوه من أن يضع لنفسه شيئاً خاصاً وقالوا: إن طعامنا وقهوتنا لكل من في السيارة من (إخويانا) أي رفقائنا، حتى اثنين من الأعراب ليس لهما عدة ولا طعام كانا من بين الذين يشملهم هذا الأمر.

ولم يمانع السائق في ذلك، غير أن الذي كدره وكدر أصحابه أنه عندما أراد أن يدخن في مجلسهم - في الصحراء - انتهره أحدهم وقال له: (ما تستحي على نفسك إلى صرت ما كرمت نفسك من شرب الدخان هالخبيث، كيف ما تكرمنا حنا - يا ربعك - عنه؟).

كان السائق عاقلاً ومجرباً قد جرب أمثال هؤلاء، فرأى أن المجاملة هي أفضل الطرق لمعاملتهم، فأطفأ لفافته.

ثم غافلهم بعد فترة، وأبعد في الصحراء، ودخن ما شاء له مزاجه أن يدخنه ثم عاد إليهم.

وصلوا إلى جدة بعد ثلاثة أيام بلياليها كاملة.

وقد عانى منصور المنثني من السفر ما زاده تعباً إلى تعب، ومرضاً إلى مرض.

وكان الشيخ إبراهيم قد كتب معهم كتاباً إلى بعض من كان يعرفهم في جدة يحثهم على إنجاز ما يحتاج إليه سفرهم من أشياء، كان هو لا يعرف تفصيلها حق المعرفة إذ لم يسبق له السفر إلى خارج البلاد، وليس لديه أدنى معرفة بما يلزم لذلك، مثل تأشيرة الخروج، وسمة الدخول، وإنجاز الجواز، والحجز في الطائرة، وما يسبقه من إعداد تذاكر السفر.

إلا أن صاحبه المقيم في جدة كفيل بذلك بحكم إقامته هناك، وتجربته السابقة لمثل هذه الأمور.

البرزخ

بعد إقامة خمسة أيام في جدة في بيت ذلك الشخص حان موعد السفر بالطائرة، أو قل حان الوصول إلى البرزخ الذي هو بالنسبة إلى (ثني بن منصور) برزخ حقيقي فاصل بين حياة كان يحياها كما كان يحياها أسلافه في بلدته (العامرية) في وسط الجزيرة العربية وبين حياة جديدة مختلفة عنها كل الاختلاف في كل النواحي هو على وشك أن يحياها.

كانت شركة الطيران التي ركبا فيها هي الشركة الفرنسية، وكانت رحلتهم تقوم من جدة إلى القاهرة، وتستغرق من الطيران ثلاث ساعات وربعاً إذ كان ذلك قبل عصر الطيران النفاث، وإنما هي الطائرات المروحية، ومع ذلك فهي طائرة كبيرة ذات محركات أربعة.

وكان صاحبهم الذي في جدة يعلم من حال منصور المنثني وابنه ما جعله يطلب من ممثل الشركة أن يوصي بهم الملاحين في الطائرة لكي يساعدوهم أثناء الطريق الذي سيكون طويلاً، إذ سيسافرون بعد أن يلبثوا في القاهرة ثلاث ساعات إلى مدينة (أثينا) في أوروبا، ويقضوا فيها بعض الوقت، ثم يستأنفون سفرهم إلى باريس.

أما عند الوصول إلى باريس، فقد اطمأن إلى أن وزارة الخارجية السعودية قد أبرقت للسفارة السعودية في باريس أن تستقبلهم، وأن تهيئ لهم الوصول إلى الطبيب المختص إنفاذاً لأمر ولي العهد الذي

كان قد أمر بذلك.

صعد (ثني) إلى سلم الطائرة فوافته على قمته مضيفة فرنسية كانت تستقبل الركاب بابتسامة عريضة إلا أنه لم يملأ عينه منها؛ لأنها امرأة غير متحجبة، وإنما نظر إلى الأرض، وتعوذ بالله من الشيطان الرجيم الذي طالما يسمع من الناس في بلادهم أنه قد أغوى أولئك الكفار من الإفرنج حتى زين لهم أن تعمل المرأة كما يعمل الرجل.

وعندما تجاوزها إلى داخل الطائرة وهو ممسك بعضدي والده وقف لأنه لا يدري كيف يتوجه، فهذه أول مرة يرى فيها داخل طائرة، وربما لم يقابل أحداً من أقاربه أو أهل بلدته سبق أن سافر على طائرة إلى خارج المملكة.

لذلك لم يحدثه محدثها عما يكون فيها.

عندما رآه أحد المضيفين أسرع إليه وأمسك بعضدي والده وأشار إلى الابن أن يتبعه إلى حيث أجلس الأب قرب النافذة وإلى جانبه ابنه.

كان ما يفكر فيه صالح وهو منطلق بالسيارة من بلدته (العامرية) إلى جدة هو ما قد يراه في تلك البلاد النائية من سيارات فارهة، ومخترعات غريبة، وآلات سمع بها ولم يسمع ببعضها.

ثم كان يفكر في أن يرى قدرة أولئك الأطباء في الكشف على المريض، والمعدات التي يملكونها دون غيرهم من الأمم.

أما ما يتعلق بمظاهر القوم، فإنه كان يحلم بأن يرى ما حدثه بعض الناس عن حمرة وجوه الإفرنج، وذلك بسبب شرب الخمر كما قال له

محدثوه.

إلا أنه عندما جلس في مقعده في الطائرة أخذ يفكر في شيء آخر شيء رآه أو على الأصح لمحه ولم يره، لأنه لم يشأ ذلك رغم أنه كان بإمكانه أن يفعل.

ألا وهو ذلك الشيء الذي بهره، إنه المضيفة.

وجعل يستعرض في ذاكرته ما كان سمعه عن نساء من نساء الإفرنج رآهن بعض قومه في البحرين أو في الهند، وحدثوا عنهن أنهن يخرجن كما يخرج الرجال، ويعملن كما يعمل الرجال.

وتذكر أيضاً ما كان قد رأى وهو في حانوته من صور على البضائع المستوردة لوجوه فتيات حمر، ولكنه كان يظن أن ذلك إنما هو رسم من الرسوم لا حقيقة له، أو إنما أراد راسموه أن يجعلوه علامة فارقة، على السلعة، وبينما كان مستغرقاً في تفكيره منكساً برأسه إلى الأرض إذا بإحدى المضيفات تمر بقربه، فلم يرفع رأسه لينظر إلى وجهها، لأن ذلك إثم عظيم لا يجترئ عليه، فطأطأ رأسه إلا أنه أبصر جزءاً من ساقيها فبهره ذلك، وخيل إليه أنهما صناعيتان، فلم يسبق له أن رأى مثلهما من قبل.

غير أن ورعه أسرع إليه فصده حتى عن التفكير في ذلك، فأغمض بصره وطرد التفكير فيهما من رأسه، وأقبل على والده يسأله عن حاله مزمعاً أن يظل غاضاً بصره منكساً رأسه إلى الأرض إذا مرت من أمامه إحداهن.

وأخذ يحدِّث والده بينما كان المضيفون والمضيفات يرشدون الركاب إلى أماكنهم ثم يغلقون الأبواب.

ثم يتأكدون من كون الركاب قد ربطوا أحزمة المقاعد.

فكانت إحدى المضيفات هي التي تتأكد من الصف الذي هم فيه.

ولم يكن (ثني) ووالده بطبيعة الحال يعرفان أن هناك أحزمة في مقاعد الطائرة ينبغي أن تربط فضلاً عن أن يعرفا كيفية ربطها.

لذلك جاءت المضيفة وعلى فمها ابتسامة عمل لترشد (ثنياً) إلى ذلك؛ غير أنه ما أن رآها مقبلة حتى تمعرَّ وجهه، وصدَّ عنها سريعاً.

لم تفهم المضيفة ماذا دهاه غير أنها فهمت أنه قد صد عنها قصداً،وقد حال بينها وبين والده لأنه هو الذي يليها، فوقفت لحظات تحاول أن تجعله يلتفت إليها راجية من ذلك،إلا أنه لم يفعل،فهو لم يفهم ماذا تريد،ولو فهم ذلك لما مكنها منه.

فيأست منه وانتقلت إلى غيره، ثم تكلمت مع أحد المضيفين الذين يعرفون شيئاً من طباع الشرقيين، فجاء إليهما، وأفهم (ثنياً) بأن يربط الحزام، فلما لم يفهم ربط المضيف حزام الاثنين بنفسه.

كان كل شيء حول (ثني بن منصور) غريباً،بل غير متصور،مما جعله لا يستطيع أن يهتدي إلى ما ينبغي له أن يعمله.

أما والده فإن الأمر كان عليه أشد إذ ألح عليه المرض، وتعب الانتقال، فشغله ذلك عن أن يحاول أن يكون لتلك الأشياء على غرابتها أي رد فعل في نفسه إلا الدعاء، وأخذ نفسه بالصبر وترك كل

شيء لابنه، لأنه - أي الوالد - لا يستطيع غير ذلك.

وبعد فترة من الوقت كانت المضيفات فيها يغبن عن ناظر (ثني) كان يجيل بصره في الطائرة فيرى المضيفين والركاب.

وسمع صوت محركات الطائرة، فلم يدر ما إذا كانت الطائرة قد تحركت من الأرض أم لا تزال عليها، ولكن فكرة الطيران بين السماء، والأرض أمر لا يكاد يصدق به هو وأمثاله رغم كونه سمع به كثيراً، وقرأ عنه أيضاً.

بل أنه كان قد قرأ عن أول طيران قام به إنسان، ولكن القراءة أو سماع الأخبار شيء، ومعاناة الطيران شيء آخر.

واختلطت في نفسه روح المغامرة مع رهبة الواقع الذي يقول له إنه سيطير لأول مرة بين السماء والأرض، وظلتا تتصارعان في ذهنه حتى تغلبت الأخيرة على الأولى، ولكن ماذا يفعل؟

إنه يعلم أنه الآن مربوط إلى هذا الكرسي بقيد لا يعرف هو كيف يحله لو أراد ذلك. ثم ماذا ينفع التفكير في هذا الأمر والطائرة الآن تزمجر محركاتها بصوت يصم الآذان، إن هذا دليل على أنها قد نهضت بالفعل غير أنه لمح بعيداً عنه بناء في المطار مرتفعاً كان قد لاحظ وجوده قبل أن يركب الطائرة.

ثم شعر بجسمه وكأنه يستلقي على ظهره رغماً عنه، ونظر إلى جهة البناء الذي كان يعهده عالياً فلم يجده في مكانه، فأيقن بأن الطائرة قد طارت، وتشبث بيدي المقعد بشدة حتى كادت كفاه تدميان، وكان

قد زايله الحرج في هذه الأثناء، فلم يكن يرى المضيفات أمامه، لذلك أخذ يمد بصره أمامه يسلي بذلك نفسه، حتى يشغل باله عن هذا الذي يرج جسمه رجا، ويزلزل ذهنه كذلك.

وبعد هنيهة من الوقت هدأ ذلك الشيء قليلاً ولم يبقَ إلاّ صوت متماثل متناسب يشبه في رأيه صوت رحا كانت عندهم قديمة، فهو شديد ولكنه متناسق ربما يحمل على الإغفاء.

هنا عاد المضيفون إلى البروز بين الركاب ثانية،وعادت أقدام المضيفات بسيقانها التي تقرع أرض الطائرة بأصوات شبه موسيقية،إلا أنها موسيقى غير محببة لأذني(ثني بن منصور)،فهو في حقيقة أمره وفي داخل نفسه لا يريد أن يرى تلك المضيفات فضلاً عن أن يعجب بسيقانهن،أو يطرب لوقع أقدامهن.

إلا أنه لم يقاوم في هذا الوضع كله.

وتعوذ بالله من الشيطان الرجيم أكثر من مرة، وكانت قد سبقت له عدة تعويذات زادت على العشرات؛ بل كان أحياناً يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم بطريقة لا شعورية،فأي مكروه يحس به يعتقد أن سببه من الشيطان،فيستعيذ بالله بطريقة شبه آلية،وإن لم يستحضر معنى الاستعاذة على حقيقته.

ومع كراهيته لمنظر هذه المضيفة التي هي كافرة أولاً، ومتبرجة بل مسترجلة ثانياً مما جلب له الغم والكدر، فإن الكدر قد يكون في طياته أحياناً شيء محبوب وفقاً للقاعدة العامة التي تقول: إن الخير المحض

والشر المحض قليل جداً في هذه الحياة، وإنما الشر هو ما كان إثمه أكبر من نفعه، والخير: ما زاد فيه الحسن على القبيح.

وهكـــذا تـذكـــر (ثني) أن هـذه فرصـة طيبة لكي يرى -عن كثب - أجساماً كافرة مآلها إلى النار، ووجوها وإن كانت تبدو باسمة في هذه الدنيا، فإنها ستكون عابسة في نار جهنم.

وراقته الفكرة، إذْ كيف له أن يرى تلك الوجوه وهو في بلاده التي كل أهلها من المسلمين الموحدين الذين طالما سمع عنهم أنهم لولا الحسد الذي في صدورهم أو صدور بعضهم لإخوانهم المسلمين لكانوا من الذين يكاد المرء يقطع بأنهم من أهل الجنة.

وكان قد نسي أنه سيقدم على قوم كلهم من أهل النار مثل هؤلاء، وهنا كان أحد المضيفين الفرنسيين قد أقبل من مقدمة الطائرة، فأخذ يتأمله فأعجبته صحة بدنه، ونظافة ثيابه، وشيء آخر لم يستطع أن يحدده بالضبط، وهو الأناقة البادية على جميع مظهره وتناسب ملابسه، ثم لما رأى وجهه ينضح بماء العافية، وليس فيه أي أثر لأي مرض من الأمراض التي تترك سماتها على الوجه كالجدري والدمامل فضلاً عن آثار فقر الدم أو نقص التغذية التي تظهر في الوجه على هيئة صفرة في اللون.

أو الآثار التي تتركها أمراض العيون من البياض في العين إلى ضيق الجفنين.

رأى (ثني) ذلك على وجه هذا المضيف الفرنسي فعجب منه،

وأخذ يبحث عن سبب له فلم يعثر عليه إلا بعد جهد ذهني، وهو أن هؤلاء لهم الدنيا وللمسلمين الآخرة.

بل إنه احتقر هذا الفرنسي في نفسه عندما ذكر قول بعض الزهاد القدماء: ((لا خير في نعيم بعده النار))، والأثر الآخر: ((يجاء يوم القيامة بالكافر المتنعم فيغمس في النار غمسة ثم يقال له: هل رأيت خيراً قط؟ فيجيب: لا)).

وبقدر ما أقنعه هذا التعليل، فإنه جلب لنفسه الرضا عندما طرأت على ذهنه فكرة مقارنة وجه هذا المضيف الكافر الذي يتألق صحة، وحسن مظهر، بوجه جار لهم في (العامرية) بلدته كان وجهه قد تكالبت عليه عدة أمراض فترك كل واحد منها فيه أثراً لم يقتصر على صفحة الوجه بل وصل إلى العينين والأنف والشفتين، وليس ذلك فحسب، وإنما تعاون أهله على نقش آثار أخرى تتمة لهذه النقوش الكثيرة فكووه كيات متعددة تركت فيه آثاراً أخرى ربما صح القول إنها مكملة للآثار التي تركتها الأمراض، لأن العلامات المميزة إذا كثرت في الوجه فقدت بعض آثارها إذ الموضع السليم منه يكون هو النشانه لأنه الجزء الأصغر من رقعة الوجه، عندما قارن (ثني) في ذهنه وجه جاره ذلك بوجه هذا المضيف الفرنسي هاله الفرق بينهما غير أنه عندما تذكر أن الفرق بينهما في الآخرة سيكون أعظم من الفرق بينهما في الدنيا، وأن هذا الفرق هو في جانب جاره – بطبيعة الحال – لأنه الفرق بين النعيم والشقاء، إنه الفرق بين الجنة والنار.

كانت هذه المقارنات بل هذه الأفكار تجري بسرعة في ذهن (ثني) بينما كان ذلك المضيف الفرنسي يذهب ويجيء بين الركاب.

وهنا جاءت إليه زميله له مضيفة فوقفت تحدثه، فأسرع (ثني) يخفض بصره عن وجهها غير أنه وجد أنه لم يخفض كثيراً فما زال يرى ساقيها لأنها غير بعيدة منه، فأسرع يطاطئ رأسه أيضاً إلا أن خاطراً طرأ على ذهنه فأوحى إليه بألا يبالغ في تجنب النظر إلى تلك الساقين لأنه في الحقيقة سينظر إلى وقود لجهنم.

هذا هو ما شعر به، أو هذا هو الذي علل به كونه لا يتشدد في منع بصره من أن يلف حول هاتين الساقين الغريبتين، وإن كان الأمر في حقيقته ليس كذلك من كل الوجوه، وإنما مرجعه إلى إحساس خفي لم يشعر به هو، إنه إحساس الرجل أي رجل نحو المرأة، أو قل: إنه إحساس الذكر نحو الأنثى.

غير أنه لو كان يعرف هذا الأمر بالضبط لما تردد في الامتناع عنه.

وراقت له الفكرة، وارتضى هذا التعليل، وأخذ ينظر قليلاً إلى ساقين ملتفتين خيل إليه أول الأمر أنهما صناعيتان لأن لونهما لون غير مألوف له، ولأنهما تبدوان مكتنزتين، وفي الوقت نفسه غير ثقيلتين.

ومع ذلك عاوده ورعه فنهاه عن التحديق فيهما فانصاع لذلك.

وكان موعد التخلص من أحزمة المقاعد قد انقضى منذ فترة إلا أن (ثنياً) ووالده لم يعرفا كيف يتخلصان منها، والمشكل في الأمر أن

الأب أخبر ابنه أنه بحاجة إلى الحمام، فلم يعرف الابن التخلص من الأربطة كما لم يعرف الطريق إلى قضاء الحاجة، فنادى مضيف الطائرة، وحاول أن يفهمه الأمر، ولكنه لم يفهم، وكان (ثني) يتكلم بصوت مرتفع يريد أن يتغلب بذلك على صوت الطائرة، فسمعه رجل مصري كان مسافراً معهم، فأسرع ينجد هذا العربي الذي لا يفهم من اللغات غير لغته، فحل حزامي المقعدين، وأرشدهما إلى حمام الطائرة، وزاد على ذلك بأنه مستعد لخدمتهما فيما يتعلق بالترجمة.

وقد وفى لهما بذلك، إذ ما إن حان موعد تقديم الطعام حتى بادرها بالمساعدة على الترجمة.

وقد تكرر أثناء ذلك مجيء المضيفات وانصرافهن، و(ثني) يسارق النظر إلى سيقان المضيفات لا لشيء إلا لينظر إلى شيء غريب من جهة، وليستعيذ بالله من حال أهل النار من جهة أخرى.

هذا ما أقنع نفسه به غير أنه في مرة من المرات كان قد يشغل بالحديث مع والده،فرفع رأسه فجأة ينظر إلى الطريق الذي كن يجئن منه،فلم يصادف منهن أحداً يراه فشعر كأنما كان قد نقصه شيء، بل شعر كما يشعر من ضاع منه شيء.

ولم يفطن إلى هذا الأمر إلا أنه بعد أن مرَّت إحداهن ونظر إلى قدميها كما كان يفعل وشعر بارتياح لم يدر مبعثه، ثم عاود هذا الأمر أكثر من مرة فزاد ارتياحه إليه.

هذا وكانت الطائرة تلجج في سماء البحر الأبيض المتوسط،

و(ثني) يلجج في ذلك البرزخ الذي يفصله من حيث لا يدري عن حياة كان يحياها إلى حياة أخرى على وشك الوصول إليها، وهي مناقضة تمام المناقضة لحياته الأولى.

وكان ثني المنثني يلجج في شيء آخر بدون أي شعور منه بعاقبة ما كان يفعل، فهو لم يكن يتصور أن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة، وأن المرء وخصوصاً في مرحلة الشباب حيث فوران العاطفة، وعنفوان الرغبات الجسدية، إذا سمح لنفسه بالإقدام على شيء صغير ربما لا يستطيع أن يمنعها مما هو أكبر منه، فيقع في سلسلة من المحظورات التي يتبع بعضها بعضاً بحيث لا تنتهي به إلا بالكارثة.

لقد تابع (ثني) نظره إلى أقدام المضيفات، وهو في مرة يستغفر ويحوقل، ويعرف أنه قد فعل ما لا ينبغي له فعله، ومرة يغفل عن ذلك أو يتغافل مستنيمة نفسه إلى دغدغات عاطفية خفية.

وما أسرع أن غرق في حميا تلك الدغدغات، فانساق بسرعة إلى أمرين:

أو لهما: أنه أخذ يرفع بصره إلى ما فوق ذلك من أجسام المضيفات.

والثاني: أنه قد غفل عن مواصلة الحديث مع والده، وتسليته عن السفر؛ لأنه شغل بالأمر الأول عنه.

والمهم هو الأمر الذي يكاد يكون ذا أثر خاص في نفسه وربما لا ينساه، وإن نسيه فإنه لا يمكن أن ينسى أثره في نفسه، ألا وهو أنه كان

يسارق النظر إلى إحدى المضيفات، ففطنت إلى أنه ينظر إليها من طرف خفي، فلما التقت عيناه بعينيها ابتسمت ابتسامة عمل هي أمر معتاد؛ بل ربما ليس له معنى بالنسبة إليها، لكنه أمر عظيم بالنسبة إليه.

فقد نبهته تلك الابتسامة إلى كونه انساق مع عواطفه، أو على الأدق مع آرائه لأنه كان يرى فيما يفعله شيئاً غير العاطفة، وإن كان الأمر في حقيقته عاطفة منعكسة - إن صح التعبير -.

لم يصدق (ثني) في مبدأ الأمر أن تلك الابتسامة كانت له خاصة، فهو - في نظره - لم يفعل شيئاً يستحق أن تبتسم المرأة من أجله، ولذلك التفت خلفه ليتأكد مما إذا كان هناك شخص آخر ينظر إليها، وأنها ابتسمت له من أجل ذلك.

ولكن أياً كان الأمر، فإن ذلك أمر كان يعادل في ذهنه وزراً عظيماً، وإنه كان قد خالجه شعور ارتاح له لفترة قصيرة من الوقت عندما تخيل أن ابتسامتها له كانت ابتسامة سخرية من ملابسه ومن خشونة مظهره، ومن حالة أبيه التي يرثى لها، فارتاح قليلاً وتمتم بالآية الكريمة: ﴿ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود: ٣٨].

وقد جعله شعوره بالذنب يستمر بالحوقلة والاستغفار والاستعاذة من الشيطان، ويترك حتى تأمل سيقان المضيفات.

وهبطت الطائرة في مطار أثينا، وقال مكبر الصوت بالفرنسية إننا سنظل ساعة وربعاً في مطار أثينا لنغادر بعدها إلى باريس، وإنه يمكن الركاب أن يتركوا، الطائرة إلى قاعة العابرين.

ولم يفهم ثني المنثني،وذلك بطبيعة الحال؛ لأنه بلغة فرنسية،ولكن جاءت النجدة من ذلك المسافر المصري الذي ترجم ما بينه وبين المضيفين،وأفهمهم أن والده مريض لا يسهل عليه الانتقال فتركوه في الطائرة،وكان الوقت ليلاً، وكان بإمكان المسافرين أن يستسلما إلى راحة لذيذة بعد تعب السفر والهبوط،إلا أن الألم اشتد على الوالد مما حمل أحد المضيفين على إسعافه بحجة تخفيف الألم،كما كان صعود خدم المطار ونزولهم يقطع عليهم لذة الاستمتاع بالهدف.

على أن الحقيقة أن الهدوء الظاهر الذي كان عليه ثني المنثني كان يخفي هيجاناً في ضميره حول ما فعله وما لم يفعله عندما رأى تلك المضيفات الفرنسيات لأول مرة.

ولو كان الأمر مقتصراً على هذا الحد لهان في نفسه قليلاً، ولكن الأصعب من ذلك والأشد وقعاً على نفسه هو ما مر به من المفاضلة بين حال هؤلاء القوم الذين هم في غاية من الترف والمظهر الحسن وهم كفار، وبين ما يعرفه من حال أهل بلده من نقيض لذلك وهم مسلمون.

وانقضت المدة المقررة للبث الطائرة الفرنسية في مطار أثينا بعد القاهرة فطارت ثانية، وحطت بعد ذلك في مطار ميلانو في إيطاليا، وقد ألهاه ما شعر به من سهر، وما ألح على والده من تعب، وما اضطرم في داخل نفسه من أفكار عنيفة عن مواصلة ما كان فعله في أول الرحلة.

العالم الجديد

هبطت الطائرة الفرنسية في مطار أورلي الذي كان يسمى (مطار باريس) مع خيوط الفجر الأولى.

ولحسن حظ صالح العطية وأبيه كان يوجد في المطار موظف من السفارة السعودية مهمته استقبال القادمين من المملكة السعودية سواء أكانوا مرضى يحتاجون إلى عناية خاصة أم كانوا من ذوي المقامات الذين لم يكونوا يعرفون شيئاً من لغة القوم، ولا مما ينبغي لهم أن يفعلوه في تلك البلاد عندما يقدمون إليها.

وكان موظف السفارة ذا خبرة بهذه الأمور لذلك أخبر المسؤولين في المطار فأرسلوا معه ممرضه مدربة كبيرة السن، وكرسياً متحركاً مخصصاً لانتقال المرضى من الطائرة إلى المطار.

لقد تولى الموظف كل شيء يتعلق بأمر الوصول والإجراءات الخاصة به كما تولت الممرضة العناية بأبيه حتى إنه لم يحتج إلى مساعدته.

فكان أول ما فعلته بالأب المريضة أن احتضنته، وساعدته على النهوض، ثم أخذت بعضديه وهي تسنده إلى جسمها في تلاصق فزع له ابنه ثني وكاد يمنع حدوثه بالقوة مدعياً أنه يستطيع أن يساعد أباه وحده، فلما لم يستطع قال لموظف السفارة:

(ما هنا رجّال يعاون أبوي؟ ما هنا غير هالمرة؟).

ففهم الموظف بحكم تجربته أن ذلك كان كراهية منه لأن تمس والده امرأة،كما كان قد واجه مثله من قبل،لذلك أجاب وهو يكتم ضحكة تهكم وسخرية، بهؤلاء الذين يأتون إلى فرنسا،وهم على غاية من التحرج من الموبقات،ثم لا يكاد بعضهم يغادرها إلا وقد حمل على عاتقه ذنوباً لا تحملها الجبال،معتقد أن (ثنياً) قد يكون منهم، مع أن ذلك الحـكم ليس عاما، وإنما له شواذ ونوادر، لذلك قال لثني: (خليه معـها، هو ختيار وهي ختيارة).

ولم يفهم معنى كلمة ختيار فهي لم تكن موجودة في لهجة بلده، وإنما قالها الموظف لأنه كان سورياً حصل على الجنسية السعودية بعد أن عمل في السفارة لفترة قصيرة.

ولم يكن بيد (ثني) أن يفعل شيئاً لو كان بإمكانه أن يعرف ما ينبغي له، إنما رأى في مطار باريس عالماً آخر جديداً عليه، بل هو كأنه حلم من الأحلام.

أول ما لاحظ أن المضيفات اللاتي رآهن في الطائرة لسن إلا أنموذجاً من هذا العالم الزاخر بما يبهر النظر من الأشكال والألوان.

رأى نساء عاملات في المطار هنّ في رأيه أغرب وأعجب، ورأى من منظر الناس وأشكالهم ما بهره، كما بهره أيضاً منظر الأبنية في المطار، فلقد عجب من أن يكون الـجـدار أملس مستقيماً كأنما أخرج من قالب، وتذكر أن جدران بيته في قريته (العامرة) تلك الجدران التي لا يشبهها إلا وجه المجدور الخارج من الجدري من حفر في وجهه من

النقر والحفر ما لا يستطيع أن يصفه إلا بليغ، ورأى من ذلك أمراً عجب له أشد العجب، ولم يكن يخطر في باله، أو يدور في خياله أنه يمكن أن يوجد، ألا وهو منظر أبواب الغرف والمداخل إذ رآها منسجمة مع الحيطان بشكل عجيب، بحيث لا يميزها عنها إلا خبير، وذلك لكونه يعرف الأبواب في بلده من الخشب، قد ركبت في جدران من الطين، والفراغ بينها وبين الجدران يكون واسعاً غير متناسق، لا سيما إذا صارت قديمة قد تعرضت للعوامل الجوية من جفاف شديد في الصيف، إلى رطوبة كثيفة في الشتاء، فيلح عليها التمدد والانكماش على مر السنين حتى تتشقق وقد تتكسر.

وذكر صالح بهذه المناسبة باباً على حوش رجل فقير في بلدته كانت القطط، بل والأطفال تدخل إلى الدار من الفراغ الذي بينه وبين الجدار وتخرج، سواء في ذلك ما كان أعلى الباب وما كان أسفله.

كما ذكر أيضاً زقاقاً في بلدتهم فيه باب قد رقعه أهله مرة رقعة كبيرة من الخشب،فانخرقت تلك الرقعة فرقعوها أيضاً.

وقال في ذهنه: أليس من العجيب أن هذا الباب الذي هنا يسمى باباً وتلك الأبواب في بلدتنا تسمى بالاسم نفسه، مع الفرق فيما بينها في الحقيقة، ولام بهذه المناسبة واضعي اللغة الذين يضعون اسماً واحداً لشيئين مختلفين.

ثم انتبه إلى أن الأمر هنا ليس مقتصراً على الأبواب والحيطان، وإنما أيضاً على الناس كما سبق أن فكر به.

وكان ما ألح على فكرة عند وصوله إلى هذه المدينة وهي عاصمة فرنسا بلد الكفر والكفار أن الناس سوف يسيئون معاملته لكونهم يبغضونه كما يبغضون أهل الإسلام كلهم، وطرأت على نفسه فكرة التقية، وهي أن يظهر الإنسان للناس غير ما يبطن من الاعتقاد إذا خاف أن يؤذوه، وتلا الآية الكريمة: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦] .

وأخذ يفكر في هذا الأمر الديني الهام، بل استغرق تفكيره إلى أن مر به رجل فرنسي كان يريد أن يمر من المكان الذي كان واقفاً فيه ثني لجهله بأنه ممر، فابتسم له الفرنسي ابتسامة رقيقة وهو ينحني إلى الأرض قليلاً ويشير بيده إلى طريقه كأنما يعتذر لثني عما سببه له من إزعاج في إزاحته عن طريقة مسافة ذراع أو ذراعين.

وقد نبهته هذه الحادثة الصغيرة إلى ما كان بعض بني قومه يفعلونه عند التزاحم على الطريق، أو عند المرور من الواقف إذْ كان بعضهم - فيما تذكر ثني - يسير بقرب الواقف الغافل فيضرب بجسمه أحد كتفيه ضربة قد يستدير لها جسم الواقف فيصبح اتجاه وجهه إلى جهة قفاه.

وذلك من دون كلمة اعتذار واحدة، ومن دون التفوه بكلمة أسف حتى مصطنعة، وقال في نفسه: وهذه! أهي من أخلاق الكفار؟

ثم أجاب نفسه بنفسه بقوله: لا، هذه من آداب الطريق التي حث عليها الإسلام، ثم إن الرجل قد اعتذر إلي بقوله وفعله مع أنني مسلم، وهذا خلاف ما فهمته من عداوتهم لنا نحن المسلمين وبغضهم لديننا.

إلا أنه استدرك قائلاً في ذهنه: ربما كان هذا الرجل لا يعرف أنني مسلم، وإنما ظن أنني أحد بني قومه الكفار!.

غير أنه استدرك على تفكيره ذلك وقال: أبداً، هذا غير صحيح، كيف يظن أنني منهم، وأنا أشهب ألهب، وهم حلس ملس؟

تسلم مندوب السفارة أمتعة المسافرين، وقدمهم إلى بوابة الخروج من المطار، تسير بجانبه الممرضة الفرنسية التي تدفع بالكرسي الذي عليه المريض، وهي تلتفت بين الفينة والأخرى إلى الشاب (ثني) لتتأكد من أنه لن يتأخر عنهم، وكانت تبتسم له كلما وقعت عينها في عينه.

ومرة ضحكت عندما رأت صالحاً وهو يقبل على جماعة كبيرة من الواقفين، وقد أخذ يمد يديه يميناً ويساراً كما يفعل من يريد أن يعوم في الماء، وذلك لكي يستطيع أن يفرق بين الواقفين ليجد له طريقاً، لأنه هكذا كان يفعل عندما يريد أن يمر بين جماعة كبيرة في بلده، هذا مع أنه كان قد انتقد في نفسه قبل قليل مثل هذه التصرفات، ولكنها العادة المستحكمة التي لا تزول إلا بعد وقت طويل ومرات متكررة.

إلا أن كلمة رقيقة من هذه المرأة الفرنسية لم يفهم من معناها شيئاً، بل إنه عجب من القوم كيف فهموها لأنه كان يشعر أنها أشبه بنغمة من نغمات الطيور الكبيرة، وهي صوتها لولا أنها كانت في غاية اللطف حتى في مخرجها الذي كان فيه غنة محببة رغم كون الغنة في بلاده غير محببة، لأن أكثرها كان يحدث بسبب مرض في الأنف، وقد كانت تلك الكلمة كافية لتفريق القوم بحيث أفسحوا الطريق للمرور

وهم مبتسمون.

وأعاد ثني المنثني يديه إلى مكانهما حول جنبيه.

ولاحظ أن عدد القوم كبير في هذا المطار، بل إنه جمهور كثيف قد ازدحم به المكان فتمتم بقوله:﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١] .

وبخاصة عندما رأى أن من الموجودين عدداً قليلاً من السود، فأسرع يلحق بمندوب السفارة السعودية وهو يقول له:

هذولا عندهم عبيد مثلنا، هم ما يتطنزون بهم؟

ولم يفهم المندوب ما قصده صالح فقال موضحاً: أقول هالحمران العطران هم ما يعيرون السود بالسواد؟

فقال المندوب: لا، هذي فرنسا فيها من كل شكل، ولا أحد يقول لأحد شيء، هذا بلاد ديمقراطية.

ومن هذه المرة لم يفهم (ثني) كلمة ديمقراطية.

ولكنه واصل سؤال مندوب السفارة بقوله: وها الحريم اللي ما يستحن ورا ما تنهاهن الحكومة؟

فأجاب المندوب: هذي فرنسا بلاد الحرية.

وهنا فهم (ثني) كلامه فهماً عميقاً لأنه كان قد سمع عن الحرية الموجودة في بلاد الكفار، وحتى بلاد المسلمين التي استولى عليها الاستعمار، وهو أن كل شخص يستطيع أن يفعل ما يشاء من المحرمات لأن البلاد بلاد حرية.

فتعوذ حقيقة وبتكرار بالله العظيم من الشيطان الرجيم.

في مدينة باريس

أقلَّت سيارة السفارة القادمين مع مندوب السفارة والممرضة، وسارت مخترقة شوارع باريس، وثني في ذهول ودهشة لم يملك معهما حينما راجع نفسه إلا أن يقول: إنه في أحلام منام، وليس في واقع الحياة.

فالشوارع التي تسير عليها السيارة لم يكن قد دار في مخيلته أنها يمكن أن توجد فضلاً عن أن يتصور صورتها.

فهي مبلطة وذات أرصفة، وهو أمر لم يخبره به مخبر من قبل، وبخاصة وجود الأرصفة في الشوارع.

والشوارع المبلطة رآها أنظف من قاعات الجلوس في منازل بلاده.

والسيارات الكثيرة اللامعة التي كأنها أخرجت من توها من أوراقها كما كان والده منصور المنثني يقول في الأشياء الجديدة قياساً على البضائع الأجنبية التي يُؤتى بها إليهم وهي مغلفة بالأوراق، فيخرجونها منها صقيلة بل لامعة، ولا تبقى كذلك إلا لمدة يسيرة قبل أن يتكالب عليها الغبار والإهمال، فتعود كدرة المنظر، خشنة الملمس.

وهالته كثرة السيارات، وكان يظنها قليلة، بل نزرة ولم يكن يتصور أنها توجد بهذه الكثرة.

وأما هيئة المنازل والأبنية التي يكون الواحد منها قطعة فنية من أعلاه إلى أدناه، وقد بنيت وفق هندسة فنية، وقيست زواياها وأبعادها

بمعايير دقيقة، فإنه قد راق له أن يسمي أحدها بالعلبة الكبيرة؛ لأنه كان يعهد البيوت من الطين، وبخاصة إذا كانت كبيرة مرتفعة تكون زواياها متنافرة، وحيطانها غير مستقيمة، بحيث يكون أسفل الحائط مثلاً داخلاً جهة الدار، وأعلاه بارزاً جهة الشارع، وقد يكون أعلى البيت أضيق من أسفله، أو بالعكس.

وخيل إليه أنه في عالم من السحر، ولكنه كعادته جعل يفلسف هذه الأشياء، فتذكر أن هؤلاء القوم هم الذين يصنعون البنادق ويرسلونها إليهم، وهم الذين اخترعوا الأشياء النافعة من السيارة إلى الطيارة.

بل حتى الآلات الصغيرة كانت تأتي إلى بلاده منهم، وأن من هم كذلك لا يستبعد عليهم أن يبنوا مثل هذه الأبنية، أو ينشئوا هذه الشوارع، إنه لا يزال يعجب من كيفية استطاعتهم ذلك كله.

وأمر آخر مهم، وهو أن هذه المدينة الكبيرة (باريس) كان قد سمع بها، ولكنه لم يكن يتصور أنها على عشر ما هي عليه من الضخامة والاتساع، وقد عرف سعتها مما رآه منها مع أنه لم يرى منها حتى الآن إلا القليل.

وغلبه الذهول، وتنازعته الأفكار، ولم ينبهه من غفلته إلا وقوف السيارة أمام فناء كبير قد جللت أرضه الأشجار، وانتشرت فيها الأزهار.

عالم الآلام والأحلام

دخلت السيارة بركابها إلى ذلك الفناء الذي عرف بعد ذلك أنه المستشفى الذي سيعالج فيه والده، هكذا أخبره مندوب السفارة.

وهو بناء لم يستطع أن يجد له (صالح العطية) في نفسه تسمية تستحق أن يوصف بها، فهو ليس داراً كما كان يعرف الدور، ولا قصراً كما كان رأى القصور من الطين، ولا يدري بمَ يسميه إلا أنه بناء مع أنه تذكر أنه حتى هذه الكلمة لا يمكن أن تعبر عن اسمه الصحيح، لأن البناء - كما يفهم - هو الذي يبنى شيئاً فشيئاً باللبن والطين أو حتى الحجارة، وهذا ليس فيه شيء من ذلك فيما يشاهده من مظهره.

وأسرعت الممرضة تتقدمهم عبر ممرات المستشفى الذي تبرق أرضه، وتكاد قدما ثني المنثني تنزلق عنه لا سيما أنه لا يزال يلبس نعـــالاً نجدية مفتوحة، وقد كاد مرة يقع على الأرض إذ انزلقت رجله، ولكنه تمالك نفسه، ولذلك صار حذراً وهو يسير فيه، بل إنه صار وهو يمشي كأنما يمشي على شوك، وقد سبب له الخجل والارتباك كون كل الذين في المستشفى إذا رأوه ووالده نظروا إليهما كما ينظرون إلى شيء غريب، وإن لم يعيدوا النظر إليهما بعد أن كانوا قد أبدوه.

وأدخلوهما غرفة كل ما فيها جميل ونظيف؛ بل إن (ثنياً) – كما قلنا – وصفها بهذا الوصف من باب المجاز، ولكونه أعجزه أن يجد لها وصفاً آخر، وإلا فإنها في نظره فوق النظافة والجمال.

بل إنه طرأت على خاطره فكرة أسرع يستعيذ أيضاً بالله من الشيطان الرجيم، ويطردها عن فكره، وهي أن هناك أشياء يسمع بها الناس ولا يعرفون كنهها، ومن ذلك كل ما في الجنة من النعيم من منازل وقصور، وأنهار وحور، وإن كان ذلك كله شيئاً مختلفاً عما في الدنيا.

ثم ساءل نفسه قائلاً: لم الاستغراب من هذا الذي رأيته في باريس مما لم أتخيله من قبل، ولماذا لا يكون من هذا القبيل؟

ثم فطن إلى أنه فكر فيما لا يجوز التفكير فيه، وقارن – من حيث لا يريد – بين ما لهؤلاء الكفار في هذه الحياة الفانية، وبين ما للمؤمنين في الجنات الخالدة، ولم يكتف هذه المرة بالحوقلة والاستغفار، وإنما تفل، أو على الأدق نفث عن يساره ثلاث نفثات يطرد بها الشيطان الذي أوحى إليه بهذه الفكرة.

المنزل الجديد

قال مندوب السفارة لثني المنثني: هذه الغرفة اللي يبقى أبوك فيها طول مدة العلاج، وتبقى أنت معه.

وكان العجب أو قل: الذهول قد ملأ ذهن ثني قبل دخول الغرفة من منازل هؤلاء القوم قبل دخولها، فلم يبق فيه مكان لما رآه من العجب فيها.

وهي غرفة تبدو معتادة لنا في الوقت الحاضر، بل إن أهل (العامرة) قرية صالح لو رأوا تلك الغرفة الآن لم يروا فيها شيئاً غريباً عليهم بعد أن تبدلت بهم الحياة، وعم الرخاء ببلادهم، وتغيرت أنماط المعيشة كلها؛ بل انقلبت رأساً على عقب بسبب كثرة إنتاج الزيت في بلادهم، ووفرة الأموال التي يملكونها، حتى صار أهل أوروبا، ومنهم الفرنسيون يتفقون في أن يعرضوا عليهم أسباب الرخاء، وأدوات العيش الرغيد التي لا يستطيع أكثرها العامة من بني قومهم.

كان في الغرفة سريران نظيفان بأغطيتهما ووسائدهما مما ابتهج له (ثني) إلا أنه عندما رأى والده ممدداً على أحدهما ذكر شيئاً انقبضت له نفسه، وهو أن هذا السرير يشبه المغسَّل، وهو نعش له أربع أرجل مثل هذا السرير يوضع عليه الميت لتغسيله، قبل أن ينقل إلى النعش الذي يحمل عليه إلى المقبرة، إذ لم يكن ثني مثل سائر قومه في ذلك الوقت يعرف النوم على السرر، وإنما كانوا ينامون على الفربات أو

الفرش فوق الأرض.

وقال مندوب السفارة وهو يوضح بعض الأشياء في الغرفة لصالح كلاماً كثيراً لم يستوعبه ذهنه،ولكنه فهم منه قوله:

(هذا الجرس تضغط عليه، وتجيك الممرضة إذا احتجتوا شي).

إلا أن كلمة (تضغط) عليه لم يفهم ثني معناها حتى أراه المندوب بأن ضغط على الجرس، فعلق ثني على ذلك بقوله:

قل ترصّه، يعني تهمزه، ولم يعرف مندوب السفارة معنى تهمزه، ولكن ثنياً فهم معنى حضور الممرضة على وجه آخر، فقال في ذهنه: ها العقلية لو أن واحد (همز) هالجرس، وهو ما له شغل، وجت المرة، - وكان فهم معنى الممرضة من صحبتها له في المطار- قال يكمل هواجسه:

وجت المرة ومسكها الرجل بي يسوي بها شي بها الغرفة اللي هو فيها لحاله؟

ولم يجد في ذهنه جواباً لهذا التساؤل، ولم يرد أن يسأل المندوب الذي أضاف قائلاً:

واصح يا سيد (ثني) تعطون أحد في المستشفى أي شيء، يعني من المصاري، فأسرع ثني يستفهم عن معنى المصاري.

فقال المندوب: يعني الفلوس، لا تعطون أحد شيء؛ لأن كل المصاريف على حساب الحكومة، حكومتنا السعودية الله يطول عمرها.

ولم يكن صالح بحاجة إلى هذه الوصية، لأنه كان قد فهم أن علاج والده وإقامته معه هما على نفقة الحكومة.

الحمام الإفرنجي

قال مندوب السفارة لثني وهو يفتح باباً صغيراً في الغرفة: هذا هو الحمام.

ولم يعرف ثني معنى وجود الحمام هنا؛ لأن الحمام الذي كان قد سمع بأنه يوجد في الأمصار، وإن لم يكن قد رآه، غير موجود في بلاده، هو بيت يحمى عليه بالنار يدخله الناس ليعرقوا ثم ليزيلوا الأوساخ عن أجسادهم، ولم ير شيئاً في هذا المكان الذي فتحه له المندوب يقرب من ذلك؛ بل إنه رأى فيه مكاناً أنظف وأفضل في المنظر ألف مرة من أنظف مجلس تخيله قبل أن يصل إلى هذه البلاد.

فقال للمندوب: وين الحمام اللي تقول؟

فأجاب: هذا هو، يعني بيت الراحة، هذا هو المرحاض قال ذلك وهو يشير إلى شيء في عين ثني وذهنه أقرب ما يكون إلى الصندوق الجميل النظيف الذي عليه غطاؤه.

ففغر فاه واستغلق ذهنه، بل إنه بدلاً من أن يتهم نفسه بعدم الفهم أخذ يتهم مندوب السفارة بخلل العقل، أو بأنه أراد أن يسخر منه لعدم معرفته مثله بهذه البلاد.

ولكنه تمالك نفسه قائلاً: وين المرحاض؟

فأشار إليه المندوب، وكان ثني في هذه اللحظة قد تمثل المرحاض الذي يعرفه في بلادهم وهو بناء من الطين فيه شيء يسقط من البراز،

وليس عليه باب، وليس فيه ماء، وهو أقذر مكان في البيت على الإطلاق.

غير أن مندوب السفارة أسرع ينزع غطاء هذا الصندوق الصغير النظيف الذي فوجئ (ثني) بأن فيه ماء قد بلغ منتصفه، فأراد أن يغرف يديه من هذا الماء ليختبره إلا أن مندوب السفارة أمسك بيده بسرعة ومنعه من ذلك قائلاً مكرراً قوله:

هذا المرحاض.

وطال بينهما الكلام قبل أن يفهم ثني معنى كلمة مرحاض هنا، ولكن الصعوبة التي لم يروِ تفاصيلها لنا راوي القصة أن ثني لم يستوعب كيف يستعمل هذا المرحاض، وأن مندوب السفارة حرص أشد الحرص على ألا يتركه حتى يفهم ذلك فهما كاملاً؛ لأنه سبق له أن وقع في أمر محرج من أناس جاؤوا للعلاج لأول مرة مثل منصور وولده، ولم يستطيعوا معرفة ذلك فاستعملوه استعمالاً خاطئاً.

إلا أن الراوي ذكر أن المندوب قام - في النهاية - بتمثيل دور الذي يستعمل المرحاض حتى ظن أن ثنياً قد فهم. ثم أغلق عليه الباب وقال لثني: يا الله اعمل مثل هيك.

وخرج من الحمام، فقال ثني: ما بي شيء.

فقال المندوب: ولو، حاول.

وحاول بالفعل حتى نجح قليلاً.

وكان فرحه بالنجاح في هذه العملية المعقدة ممزوجاً بالدهشة إذ

أسرع يخبر والده بالأمر ويقول له وهو يضحك:

يابه .....يعوم في الصندوق وش يسوون به.

غير أن المندوب لم يتركه أيضاً إذ رأى مسرح العملية ففطن إلى أنه لم يستعمل المسيل للماء، فأراه كيف يفعل، وضحك ثني كثيراً رغم ما هو عليه من اضطراب ذهني عندما رأى أن ذلك الشيء يعوم فعلاً في هذه الصندوق قبل أن يبتلعه الصندوق، ويعود إليه الماء الصافي الذي كان ثني قد تخيل أنه نظيف، وأراد أن يجرب نظافته بيده في أول الأمر.

وأما المغطس فإنه عندما رآه تذكر أن الأغنياء المترفين في بلاده كانوا يغتسلون في الأواني الكبيرة التي لا تبلغ مثل هذا المبلغ، وتذكر آنذاك بيتين من الشعر العامي في هذا المعنى:

الله كريم رزق منصـــــور مـــنصـــور ولد التعـــيلية

عقب الناحي وكنس الدور اليوم يســـبح بصيـــنية

وقال في نفسه إين الصينية من هذا المكان الأملس الواسع؟

وبخاصة عندما رأى الماء ينزل إليه من صنابير في الجدار لا يدري من أين يأتي إلا إن ساءل نفسه قائلاً:

كنا نعرف أن الماء ينبع من الأرض،والآن هو ينبع من الجدار.

رجوع الشيخ لطفولته

بعد أن انتهى حديث الحمام الإفرنجي، من لسان مندوب السفارة، ومن تفكير ثني بسبب وجود أشياء كثيرة في هذه الغرفة تحتاج إلى تفكير، وليس لكونه قد نفدت عجائبه، عاد إلى والده يسأله عن صحته، فشكا إليه الوالد أنه يجد آثاراً من التعب، وسأل ولده ثنياً عن المسافة من جدة إلى هذه البلاد وعما إذا كانت تبلغ مسافة يومين للإبل، فأجاب الابن: بأنها أكثر من ذلك، لأنها بعيدة حسب ما نعرفه عنها، ولكننا لا ندري المسافة.

كما كانت هناك أحاديث متقطعة، واستفسارات عديدة من الأب لابنه عما رآه هنا لم يستطع أن يجيب عليها لأنه هو نفسه كان في دهشة واضطراب ذهني.

وقطع الحديث بينهما عن هذا الموضوع دخول اثنتين من الممرضات تدخلان وهما تتبادلان كلمات أشبه ما تكون بنغمات الطيور الجميلة، أو هكذا تخيل ثني ذلك في ذهنه.

ووجها إليهما التحية بالفرنسية (بونجور)، ولكنها ذهبت دون صدى؛ لأنهما لا يفهمان شيئاً، بل لا يفهمان حتى أن تحيي المرأة الرجال الأجانب، ثم وجهتا إليهما كلمات أخرى، بل كلاماً متصلاً لم يكن له أي صدى لديهما أيضاً.

وهنا اسرعتا إلى نزع ملابس الأب كلها حتى لم يبق عليه إلا

السروال، وذلك وسط ممانعة ضعيفة منه لمرضه، ومحاولة متصلة من الابن لأنهما لم يفهما المقصود من نزع الملابس حتى تعاونت الممرضتان على إسناد الشيخ المريض على جسم كل واحدة منهما من جانبه وأدخلتاه الحمام في حركة قسرية أغلقت إحداهما باب الحمام من الداخل.

وأجلستاه في المغطس، وبدأتا تتعاونان على تنظيف جسمه بالصابون والماء الدافئ، مما جعله يستنيم إلى الأيدي الناعمة التي كانت دفيئة أيضاً كهذا الماء الدفيء.

وأخلد شعوره إلى إغفاءة ناعمة أعادته إلى طفولته عندما كانت أمه تغسل جسمه بالماء وهو طفل إذا تراكمت عليه الفضلات والأوساخ.

وكان يكفيه من أي شيء من ذلك أن يشعر بأنه قد تخلص ولو في الأوهام من أعباء الشيخوخة والمرض، وعاد إلى عهد الطفولة البريء المليء بالمتعة والعافية.

وواصلت الأيدي الناعمة دورها على الجسم الخشن حتى كادت تخلع عليه من صفاتها نعومة لم يعرفها من قبل.

وألبسنه ثياباً نظيفة، ثم أعدنه بين أحضانهن برفق إلى سريره.

ولم يستطع أن يخبر ابنه بكل ما شعر به لأنه أمر عاطفي يخجل هو وأمثاله من الحديث عنه، وبخاصة مع ابنه إلا أنه قال: يا وليدي: (بنات ها الأجاويد سون بي شي ما سوته بي أمي وأنا صغير).

وكاد أن يقول: ولا سوته امْرتي بي إلا أنه تذكر أن كلامه قد يمس مشاعر ابنه لأنه يتكلم عن أمه.

غير أن أبنه قاطعه يقول له:

يبه، لا تقول الأجاويد هذولا كفار.

فقال الأب: كفار؟ هو صحيح أنهم كفار؟ والله أنا ما أدري عن دينهن، لكن هالحريم بنات حلال.

وعاد الابن يقول:

يا يبه، الله يهديك، هذولي ما هن بنات حلال، هذولي كافرات.

فقال الأب:

على هونك علي ولدي، أنا رجّال كبير مريض، ولا أعرف الناس لكن ما سون هالسواة بي إلا أنهن محتسبات، والاّ ما جاهن منّا شي.

وعاد الابن بلهجة أشد يقول لوالده: من اين لهم الاحتساب يبه؟ هذولي ما عندهن دين، ما همب مسلمات.

وسكت الأب على مضض؛ إلا أنه أخذ يحدث نفسه بما تفوه به أمام ابنه حيث لا يستطع ابنه أن يقاطعه وهو يقول في نفسه:

عز الله أنهن أجاويد وش هاالمروفه؟ وها اللين؟ وش هالسماحة؟

ثم يقول في نفسه – أيضاً –: بعد وش هالملاسة؟ والزين بياض، وعيون وساع، وعنق كنه عنق الريم، ثم سخر من نفسه عندما وصفها

بالريم فقال: وش يصيرن هذولي، هذولي أزين من الريم، ما يخس الريم رالبا عندهن، ثم ألحٍ عليه الألم الذي كان يشعر به من مرضه بعد أن كان قد استنام قليلاً بواقع شعوره بعودته، بين يدي الممرضات إلى طفولته، فشغله الألم عما كان فيه.

أما الابن فإنه وإن كان قد اعترض على نعت والده للمرضات بأنهن بنات حلال وأجاويد، فإنه أخذ يشعر بشيء غريب بدأ على شكل تساؤل ملح عن صحة ما كان يعتقده هو وبنو قومه من أن الكفار يبغضون المسلمين، مع أن فعلهم هذا وأمثاله هو فعل الشخص لمن يحبه، لا لمن يبغضه.

العيش الرغيد

عاش (ثني) مع أبيه بضعة أيام أخرى في هذا المستشفى عيشاً جديداً رغيداً بالنسبة إليه، لأنه بين أكل وشرب وتمتع بالنظر والاطلاع على الجديد.

ولم يكن يكدر ذلك إلا صعوبة التعايش معه لأول مرة، فقد كان من المشكلات الكبيرة أن يعرفا كيف يستعملان أدوات الأكل من الملاعق والشوك والسكاكين.

وكيف يضعان في ترتيب الأكل إذْ كان صالح لا يرى فرقاً مثلاً بين أن يأكل الحلوى والفاكهة في أول الطعام أو في وسطه، حتى الشاي والقهوة وهما مشروبان معروفان لهما؛ بل ليس في بلادهما مشروب ثالث مثلهما، كان تناولهما مشكلة في أول الأمر، فكان صالح يشرب الحليب وحده والقهوة وحدها.

أما والده فإن الممرضة كانت تساعده على الأكل في بعض الأحيان، فكانت تضع الطعام والشراب في فمه كما كانت أمه تفعل به وهو طفل صغير.

وأحياناً كانت تلاطفه، وربما تخيل أنها تلاطفه لكي يأكل من الطعام أكثر مما أكله.

وذلك في مجاملة فعليه ظاهرة عرف المريض ما يصحبها من أقوال فزاد من الحال.

وكانت آلام المرض قد خفت على الأب بعد أن كان الطبيب المعالج قد كشف عليه وأعطاه أدوية مهدئة وعلاجاً مبدئياً.

جوزفين

تعددت الممرضات اللاتي يترددن على غرفة منصور المنثني لمعالجته، وذلك بحكم تعدد تخصصهن، ومناوبة بعضهن، ولقد كاد يصير منظرهن مألوفاً في عيني ابنه (ثني)، ولم يعد يؤثر في نفسه أثراً يذكر، فضلاً عن كونه يفعل كما كان يفعل من الحوقلة والاستغفار، بل إن النظر إليهن، والتمتع بما رآه من محاسنهن قد قل إلى درجة معينة.

إلا أن واحدة منهن اسمها (جوزفين) كانت تأتي إلى الغرفة لتقوم بواجبها في معالجة الأب في فترة من الفترات قد لفتت نظره بشكل لم يجد له تعليلاً، فهي ليست أكثرهن بياضاً، وإن كانت بيضاء صافية الأديم، وهي ليست أطولهن قامة، رغم كون البياض وطول القامة هما مثل أعلى في مقاييس الجميل عنده.

بل إن شعرها قصير قد قصته حتى لا يتعدى شحمة الأذن، وليست مثل بعضهن اللاتي قد أرخين شعورهن حتى تصل إلى ما تحت الكتفين في انسياب عجيب طالما عجب له وتعجب منه ثني؛ إذ كيف ينساب الشعر هكذا دون أن تكون فيه عقد أو تجعد كما يكون في شعور النساء اللاتي يعرفهن في بلاده؟

كانت جوزفين في أول مرة لفتت نظره مصغية تنظر إلى والده، (ثني) واقف حوله، فاحتاجت لشيء من الأشياء فرفعت وجهها إلى

وجه ثني ووقعت عينها في عينه، فشعر بشيء عجيب تحرك له شعوره، بل أحسَّ بأن ذلك الشيء قد سرى في قلبه بلطف كما يسري شيء لم يعتده من قبل، ولذلك لا يستطيع وصفه.

وعندما رأت وجهه، وقد ركزت فيه عينيها فرأته يبادلها النظرات جاءت نظراتها فيه فتوقفت عن عملها قليلاً تنظر إليه، وينظر إليها.

فرأت فيه رغم خشونة منظره، وعدم معرفته بقواعد معاملة الناس هنا؛ فضلاً عن النساء المهذبات شيئاً آخر غريباً، ربما كان منظر الصحراء التي يشتاق إليها من يعيشون في بلاد خضراء، مضافاً إليه غموض الصحراء، أو بساطتها التي يصعب تعليلها، ربما كان هذا هو شعورها نحوه لأول مرة، وإن كانت خبيرة بنجوى القلوب، بل بأحوالها وتقلبها، بخلاف ثني الذي جرب ذلك مرة واحدة، وإن لم تذهب به تلك التجربة إلى أبعد مدى من العاطفة الغامرة عندما أحب بنت جارهم، ولم يتمكن من المضي في حبه؛ غير أن حبه لبنت جاره كان من نوع آخر مبعثه أنهما كانا تربين نشآ متلازمين، فشب معهما الحب هادئاً كما يكون النسيم العليل، ولم ينقلب إلى عاصفة إلا عندما أغلقت دونه السبل، ومنع من التسرب تماماً مثلما يتحول الهواء القليل إلى قوة عظيمة عندما يصبح حبيساً في حيز محدود.

لم تكن (جوزفين) قد رأت في ثني من قبل أي عامل من عوامل الإثارة، بل إنها كانت رأت فيه عندما رأته لأول مرة مع والده الفرصة للحصول على معرفة من المعارف الجديدة، لأنها أول مرة تقابل فيها

شاباً صحراوياً فيه شيء من الوسامة قد طمره الإهمال في المظهر، وأخفاه الجهل بالمعاملة في مثل هذه البلاد الغربية، إلا أن الواقع أن الإنسان في جوهره هو الإنسان بخاصة إذا كان إنساناً قريب الشبه بك، فإنك لا بد أن تجد فيه ما يشدك إليه إذا كان هو نفسه قوي الشخصية، أو ذا شكل يتسم بالجاذبية في أي حال من الأحوال.

وحتى (جوزفين) الفرنسية الخبيرة بتقلب القلوب، لم تكن تتصور أن نظرتها الأولى إلى ثني التي كانت كما قلنا نظرات استطلاعية سوف تتحول إلى نظرات ذات معنى.

والمعنى هو في قلوب الفرنسيات الرقيقات الفاتنات، اللاتي هن أيضاً يصبحن مفتونات في كثير من الحالات، عندما وقعت هذه النظرات على وجه (ثني)، ونفذت إلى أعماق عينيه أحست هي أنها لن تكون عاقبتها عاقبة النظرات الأولى الاستكشافية البريئة.

فرأت في عينيه وفي وجهه، بل وحتى في شكله كله الذي لا يعجبها لو تحدثت عنه مجرداً مثل عدم المبالغة في النظافة، وعدم ترتيب الهندام على حد تعبيرها في نفسها، وكيفية لبس النعلين؛ فضلاً عن تصرفاته تجاه الأخريات، من عدم المبالاة أحياناً، إلى الزيادة المفرطة عن ذلك أحياناً أخرى، وعدم أداء التحية للجنس اللطيف، بل حتى الرد على التحية من إحداهن التي وإن كان الرجل لا يعرف لغتها، فإنه على الأقل يفهم لغتها التي تتمثل في غمزة بالعين، أو إيماءة من الرأس، أو نحو ذلك.

ولذلك تأملت وجهه وعينيه، وابتسمت ابتسامة عفوية في ظاهرها، لكنها كانت في الواقع مظهراً من مظاهر عاطفة، أو هزة عاطفية لا تدري كنهها، ولكنها تعرفها من نظرات الإعجاب أو التعجب من الشيء الحسن في بعض الأحيان.

أما (ثني) فإنه بعد أن انتقل شعوره بسرعة من منظر العينين الساحرتين - كما صار يقول بعد ذلك في وصفهما - إلى منظر الشفتين، اللتين افترتا عن هذه الابتسامة العفوية الصادقة، شعر بأن قلبه كأنما فتحت فيه نافذة على عالم من مشاعر لم تمر به منذ سنوات، وأحياناً شعر بأن قلبه قد أغلق على تلك المشاعر، فلم يعد يميز ما إذا كان ما أصابه قد فتح فيه باباً، أو أغلق أبواباً.

لذلك ظل متحيراً لا يدري ما أصابه، وإن كان يعرف أنه قد أصابه أمر غريب.

حتى أنه نسي في تلك اللحظة أدوات الإصابة تلك، فلم يكن قد بالى بالعينين الساهمتين العميقتين اللتين هما في لون مياه البحر العميق بين الخضرة والسواد، ولا بالخدين الأسيلين اللذين حلف ثني في نفسه لنفسه ثم لصديقه الجديد (سعد) بعد ذلك أنه لم يمر بهما جدري أو حصبة، ولم يقع عليهما ذباب أو بعوضة؛ بل لم يلفحهما سموم، ولم يصل إلى قلب صاحبتهما هموم، ولا بالشفتين الحلوتين التي كساهما الشباب صبغة هي صبغة الله أغنتهما عن الأصباغ.

والشيء الذي أدهشه هو الطريقة في انفراجهما عند الابتسام،

حيث تم ذلك بطريقة هي في عينه السحر ذاته، لأنهما انزلقتا إلى الجانبين انزلاقاً دون أن تكون هناك عملية فتح في الفم، أو إغلاق له.

هكذا قال.

وأما الثغر الذي تحت الشفتين، فإنه صفان من اللؤلؤ الصافي، بل إنه سخر في نفسه من اللؤلؤ فيما شبهه بهما، أو شبههما به، فهما أصفى منه لوناً، رغم كونه صافياً.

لا سيما أن اللؤلؤ حجر ميت، وهذا الثغر الفتّان جزء من حياة ساحرة فاتنة، وقد رأى الشباب الصافي يجري فوق السمطين اللؤلؤيين في فم جوزفين، فحلف في نفسه أيضاً لنفسه، أنهما لم يعرفا السعال، ولا بقية الأمراض التي تسبب السعال.

ثم تأمل قوامها الرشيق المتناسب فعجب من ذلك، رغم كونها غير طويلة، وقال لنفسه: حتى ثيابها كأنها جزء من جسمها، فهي بيض ليس فيها زيادة ولا نقص، وهي مثل جسمها أيضاً في كونها خالية من الطيات أو الانثناءات.

جرى ذلك كله خلال اللقاء الأول الذي زاد عن الرؤية الأولى التي لم تكن إلا إلمامات خفيفة لم يقصد بها أحدهما أن يرى الآخر، فضلاً عن أن يتأمله أو يحادثه.

وقالت له في آخر هذه النظرات: (بارليه فرانسيه؟ أي: أتتكلم الفرنسية؟

فلم يدرِ ما تقول؛ غير أنه طرب طرباً عظيماً لسماع صوتها الذي

وقع على أذنه وقوع مجموعة الأصوات المحببة من غناء البلابل، وخرير الجداول، وتعانق الزهور عندما يهب عليها النسيم.

وكان أعظم من ذلك في عينه فتنة انفراج شفتيها المرنتين اللدنتين عن هذه الكلمات القصيرة بابتسامتها الساحرة.

ولم يجد جواباً لقولها إلا قوله: هاه مصحوبة بابتسامة لم يقصد منها الإجابة على الكلمات، وإنما الإعجاب الفوري العفوي لابتسامتها العذبة.

وهنا سكت اللسانان، وتحرك القلبان، وارتعشت الشفتان، وأطرقت العينان لحظة في إغفاءة النشوان، ثم قالت جوزفين:

وهي تهم بالانصراف: (أرفوار).

ولم يدرِ (ثني) أيضاً معنى (أرفوار)، وأنه الوداع بالفرنسية، ولذلك أخذ يقلب في ذهنه الأمر ويقول: أيكون معناها: أنا فار، لأنها فرت بعدها بالفعل؟

ولكنه استدرك قائلاً: هذا غير جائز في اللغة لأن القياس أن تقول: أنا فارّة.

ثم ضحك في نفسه من سخافة تفكيره عندما تذكر أنها تكلمت بلغة غير عربية.

ولكن ضحكته كانت قصيرة أعقبها وجوم مبعثه أنه سأل نفسه، بل سأل جوزفين من خلال صورتها في ذهنه عن كونها تذهب بهذه السرعة، لم تتمهل، وتتلبث في الغرفة بعض الوقت، وماذا يضيرها لو فعلت ذلك؟

الغرام

التقى قلب ثني وقلب جوزفين رغم قشف الصحراء ومدنية الأرض الخضراء كما تلتقي حبوب اللقاح رغم ما يغلفها أو يحيط بها من قشور؛ بل من سدود أو قيود.

إذ تكررت رؤية أحدهما للآخر، بل تكرر ذلك أكثر مما كان عليه في أول الأمر، ربما لكون جوزفين قد اختارت أن تكون حصتها في العمل في المنطقة التي فيها غرفة المريض، منصور المنثني، وصار ثني يترقب مجيئها، كما تترقب الأرض العطشى نزول ماء السماء.

وفي يوم من الأيام تأخرت عن موعد مجيئها اليومي المعتاد فاستطير فؤاده، وجن جنونه، وغشيه من المشاعر ما لا يستطيع أن يصفه، حتى إن والده، وهو المشغول بمرضه عن ملاحظة مثل هذه الأشياء الخفية قال له وهو يحادثه:

وش اللي بك يا ثني؟ أشوفك ما تلقين بال.

وكأنما كان قد انتبه من سبات عميق فيه من الأحلام الحلو والمر، فقال لوالده بعفوية:

لا أبداً يا بيبي، بس أفكر، قال هذه الكلمة من دون أن يفكر فعلاً في معناها الدقيق لذلك فوجئ بوالده يسأله عما يفكر فيه.

فأجاب وقد عاد إلى كامل إدراكه:

أفكر يا بيبي بها الدنيا التي جابتنا من ديرتنا لها الديرة اللي ما

نعرف حتى هرج أهلها، والله ما كنهم إلى بدوا يحكون عندي إلا طيور تناغق.

فضحك الوالد من هذا التعبير وقال:

واله أنا يا وليدي أنا أتعجب كيف بعضهم يفهم بعض من هرجهم اللي ما كنه فيه كلام.

وفي هذه الأثناء القصيرة كانت مشاعر الشوق إلى جوزفين قد عادت إلى الاستيلاء على تفكير ثني بسرعة، بل أنها لم تكن قد زايلته من قبل، وإنما كان قد استيقظ منها لحظة.

ولذلك عندما استأنف والده الحديث معه قائلاً: هات (رياض الصالحين) يا وليدي أقر علينا فيه شوي.

وكانا قد أحضرا معهما مصحفاً كريماً وكتاب (رياض الصالحين) في الحديث للنووي.

مد ثني يده بصورة آلية فالتقط الكتاب، وفتح إحدى صفحاته بدون عناية.

ثم ابتدأ بالقراءة على عادتهم.

(بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد الله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين).

قال المؤلف رحمه الله تعالى:

وهذه جملة محفوظة تقال قبل البدء بقراءة ما في الكتاب ولا تحتاج إلى تفكير، ثم تبدأ بقراءة الحديث غير أن صورة جوزفين تمثلت أمام

عينيه بإغرائها الذي يعرفه، وسحرها الذي لا يعرفه، وحالت بينه وبين القراءة، فتلعثم ولم يستطع الاستمرار، فسأله والده قائلاً:

وراك يا ثني هو النور ضعيف؟ الكتاب حروفه كبار، ما يخالف لو النور ما هوب قوي!.

وهنا تنبه ثني إلى خطورة ملاحظة والده التي قد تفضح سره، فحرك رأسه يميناً ويساراً كمن يحاول أن يلقي من فوق رأسه شيئاً كان يؤذيه، يريد من ذلك أن يسقط من ذهنه ذلك الشيء الذي شغله.

ولكن العواطف في الشعور ليست كالأشياء المادية التي تكون على الرأس، ويمكن إسقاطها بحركة كهذه، وإنما الحركة هي في الواقع تنبيه للشخص ليعود من إصغائه إلى شعوره، وإخراجه من ذلك إلى عالم الظاهر.

واستطاع أن يقرأ حديثاً واحداً قراءة صحيحة لتعود صورة جوزفين مرة ثانية وتتراءى له أمام صفحات الكتاب.

ولم يستعذ هذه المرة بالله من الشيطان الرجيم كما كان قد فعل مراراً عندما ألم بأصغر من ذلك بكثير وهو رؤية سيقان المضيفات في الطائرة.

وذلك بأنه قد وقع في مستنقع قد ابتلت فيه قدماه، وهو على وشك أن يغرق فيه، وهذا شأن من يكون على وشك الغرق، أو حتى الغوص في مثل ذلك الأمر إلى أذنيه ألا يبالي بالرشاش الذي يصيب ثوبه.

ولم يستطع الاستمرار في القراءة، وإنما أطبق الكتاب معتذراً لوالده بأنه يعاني من صداع، وهو في الحقيقة يعاني من صداع عاطفي هو في كثير من الأحيان أعظم ألماً، أو قل: أعمق في تحريك المشاعر من الصداع وغيره من الأمراض.

لأنه من يصاب بهذا الصداع العاطفي يصبح في حالة بين حالتين من الرضا به، والكره له، فهو لا يدعو الله أن يرفعه عنه، ومع ذلك يكون دائم الشكوى منه.

وكأنما كان قد حصل على فرصة لم تحصل له من قبل عندما استلقى على سريره، وأخذ يتأمل في ذهنه صورة (جوزفين) بقوامها الانسيابي اللدن، وشعرها الذي لا ينزل عن مستوى عنقها، ولكنه يؤلف شبه حلقات جميلة غير متكاملة ولا في البهاء والرونق.

وابتسامتها التي هزت كيانه، ولا تزال موجات هذه الابتسامة بل الابتسامات تتردد فيه، ثم إنه نسي أن يصف شيئاً في جوزفين، وهي مشيتها التي لم يستطع تحديد ما يعجبه فيها، ولذلك خاطب نفسه قائلا: كلها مملوحة، وشو الشي اللي بها ما هوب مملوح؟

وأغفى الأب، وتظاهر الابن بأنه في إغفاءة أيضاً مع أنه لو تمثلت المشاعر التي يضطرم بها كيانه أصواتها لزلزلت منها الأجواء المحيطة به.

والأدهى في الأمر أن (تُنَيَّاً) عندما توجه إلى القبلة يؤدي الصلاة بعد ذلك شعر بأن (جوزفين) تتمثل له فيها أيضاً، بل شعر كأنما هي تقف حائلاً بينه وبين القبلة.

وهذه المرة تعوذ صادقاً بالله من الشيطان الرجيم، وجزع عما وصلت إليه الحال بالنسبة له، إذ لم يكن يتصور أن يحدث له ما يمنعه من استحضار الخشوع في الصلاة.

وقال في نفسه: الحقيقة أن هذه المرة هي شيطان رجيم، فهي كافرة، وهذا ما أملى عليها أن تفعل به ما فعلت، لتفتنه عن دينه.

وتلا آيات من القرآن الكريم، وسبح وحوقل، وقد فعل ذلك بصوت مرتفع ليعلو على أصوات المراجل التي تعتمل في كيانه، حتى إن والده الذي لم يعتد منه سماع ذلك انتبه من غفوته، وأظهر لابنه سروره بسماعه يستغفر ويحوقل ويهلل ويسبح.

وكان لهذه الأذكار فعل ظاهر إذْ خف ما كان يعانيه قليلاً، واعتقد أن ذلك بسبب طرد الوساوس الشيطانية، فارتاح لهذا الخاطر، واطمأن له، غير أنه اشتاق إلى تذكر تلك المشاعر العميقة، بل إلى تمثل صورة (جوزفين) بالذات.

فحاول إقناع نفسه بأن (جوزفين) ليست إلا امرأة جميلة لم تفعل له أي فعل ينتقد، وبرر بذلك أن يستمر في تذكرها، بل أن يستمر في عدم طردها من ذاكرته.

وبات ليلة تلك ليلة عجيبة مليئة بالأحلام اللذيذة المشوبة بالآلام الشديدة التي يبثها ضميره في كيانه ويؤنبه عليها.

ولو كتبنا كل ما جرى له في تلك الليلة لأشجينا القارئ الكريم، وربما أثرنا أحزانه، أو حتى نفاد صبره على متابعة تلك المشاعر.

لذلك رأينا أن نطوي عنها صفحاً لننظر إلى الصفحة التالية مما جرى في اللقاء التالي:

حضرت (جوزفين) هذه المرة بنية أن تقابل ثنياً، ولذلك كانت قد تهيأت لهذا اللقاء، وتزينت بما تتقنه المرأة الفرنسية من فنون تجميل الجمال، أو لنقل من التصرف في عرض الجمال، وخاصة الجمال الذي وهبه الله للإنسان.

وجاءت قبل الموعد المحدد، تطل في الغرفة لتشير لثني مباشرة دون أن تمر على والده أولاً كما كانت تفعل من قبل: إنها ستأتي إليهم بعد قليل، مع أن الأمر لم يكن في السابق يستدعي ذلك، لأن المرور بالمرضى أمر طبيعي لا يحتاج إلى تمهيد.

وكان (ثني) لم يفارقه خيالها، غير أن رؤية المحبوب هي كشرب الخمر، كلما زاد الإنسان من شربها زاد عطشه إليها، بل رأى أنه لن يستطيع الفكاك منها إلا بها: كما قال أبو نواس:

وكأساً شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

وقد جاءت إليه محبوبته التي لم يصفها حتى الآن بهذه الصفة، وسحبت كرسياً بعيداً عن سرير والده على خلاف ما كانت تفعله في السابق؛ حيث لم تكن تجلس إلا عند والده للكشف عليه أو لعلاجه.

وجذبت (ثنيا) بعينيها للجلوس بجانبها، وحاولت أن تقرأ أفكاره عنها في عينيه، وفي الانفعالات التي تظهر على وجهه، ولم تكن بحاجة إلى جهد لمعرفة ذلك، فقد كان كله مثالاً على الحب بل الذوبان بها.

أما هي فإنها قد أحبته، إلا أنه حب يحجز دونه - في نظرها - هذه المظاهر من عدم الأناقة في الملبس، والعناية بالهندام التي لم تألفها، والأهم من ذلك هو الحاجز الثقافي.

وقالت في نفسها: لولا ذلك الحاجز لكان هذا الشاب قد دعاني إلى حفلة عشاء أو غداء، وكنت صحبته في نزهة على معالم باريس أكون فيها له رفيقة رقيقة، وأمتع نفسي بصحبته.

ومع معرفتها بعدم فهمه لأية كلمة باللغة الفرنسية، فإنها جعلت تلقي إليه بكلمات من الفرنسية لمجرد أن تعبر له عما في نفسها، وليس من أجل أن يفهمها.

وكدت ذهنها فاستخرجت منه كلمات بالإنكليزية ألقت بها إليه، ولكنها كانت أكثر غرابة على سمعه واستعجاماً في خاطره من الكلمات الفرنسية؛ إذْ كان يرى في الكلمات الفرنسية نغمات حلوة، تدغدغ مشاعره حتى وإن لم يعرف معناها، وبخاصة حرف اللثغة الرائية التي سمعها من الممرضات الباريسيات وهن يتناغمن بها فيما بينهن.

ثم قامت عند سرير والده لتفحصه كالمعتاد، ولكن كانت نظراتها لا تزال متجهة إلى الابن، وكان الابن نفسه لا يزال متجها بكليته إليها.

واقترب منها بطريقة عفوية عندما أراد أن يمر، فالتفتت إليه فاقترب الوجهان اللذان لم يكونا بعيدين وجدانياً من قبل، ورأت هي بطبيعتها الفرنسية وتربيتها المتحررة، أن تقرب شفتيها من شفتيه،

ولكنه لم يفهم لهذه الحركة أي معنى وظن أنها عفوية، بل ظن أنه قد أخطأ من الاقتراب منها، فكاد يعتذر عما بدر منه لولا أنه لا يستطيع الاعتذار.

وكان (ثني) في قرارة نفسه يشعر بأن هذه الفرنسية لا تبادله العاطفة، بل يشعر بأنه أخطأ حتى في حبه لها هذا الحب الذي لا يزال بالنسبة إليه مكتوماً، إذ لم يكن يخطر بباله أنها قد تبادله الإعجاب، فضلاً عن الحب، وهو على ما هو عليه من الخشونة وعدم التمدن، وهي على ما هي عليه من عكس ذلك.

وذلك من واقع عدم معرفته بخبايا النفوس، ولا بتجارب الحياة.

وقد زادها ذلك الذي ظنته تمنعاً من (ثني) إعجاباً به، وتخيلت أن ذلك كان اعتزازاً منه بشخصيته، وبأنه قد يكون على ثقة من أنه سيجد غيرها ممن يبادلنهن الإعجاب إن لم يكن الحب.

وسمع منها بعد ذلك هذه الجملة التي سماها المشئومة، وإن لم يعرف معناها وهي: (أورفوار) أو (أنا فار) كما ترجمها خياله، لأنها تدله على الفراق.

وتكررت رؤيته لها، وتكررت مصيبتها به، فلا هي تستطيع أن تسير معه شوطاً أبعد، كما تفعل الفرنسيات مع الفرنسيين، أو مع الذين يقلدونهم، ولا هي تستطيع أن تسلاه فضلاً عن أن تنساه.

بل إنها زادت علاقتها - في هذه الحدود - معه.

ومن ناحيته فإن جنونه بها قد زاد إذْ استولت على تفكيره كله

حتى لم يعد يفكر في غيرها.

وكان ما أفزعه أن صحة والده قد تحسنت، وهذا أمر يسرّه بطبيعة الحال، وكان يستعجل ذلك، ويدعو الله تعالى ألا يكون بعيداً، إلا أنه بعد أن هام بجوزفين قد صار لا يسرّ بتقدم صحة والده؛ لأن ذلك يعني أن يشفى وأن يغادر باريس عائداً معه إلى بلاده، وبالتالي يكون معناه أنه سيحرم من رؤية (جزوفين).

وهاله ما وصلت إليه مشاعره، وكيف أنه صار يتمنى أن يطول المرض بوالده، ولم يخفف عنه من ذلك إلا تعليله الأمر لنفسه بأنه ليس رغبة في عدم شفاء والده، وإنما رغبة منه في ألا يحرم من رؤية (جزوفين).

وكانت مشكلة (ثني) الرئيسية أنه كان يجتر مشاعره بنفسه، ولم يجد من يصلح أن يفضي إليه بسره.

فمندوب السفارة الذي اعتاد على زيارتهم بين الفترة والأخرى لا يصلح لهذا الأمر، وأحد السعوديين الذي شفوا من مرضهم كان يزور والده، ولكنه أسرع العودة إلى البلاد.

الانقلاب

امتد العلاج بالوالد، واحتكاك الابن بهذه الحياة الجديدة وسط عيش رغيد لا تعب فيه ولا نصب، وفي جو مليء بالسحر والجمال بالنسبة لمن لا يحملون هماً أو غماً من تحصيله، لا سيما من كانوا مثل ثني ليس لهم هم إلا الأكل والجلوس، وتعرف (ثني) على فتى من البلاد السعودية كان يعالج قبل فترة في هذا المستشفى وخرج منه؛ غير أن الأطباء أشاروا عليه بمراجعة المستشفى بين الفينة والأخرى.

فكان ينتهز الفرصة ويبحث عن السعوديين الذين جاؤوا للعلاج، أو لصحبة المعالجين يتعرف عليهم، ويبذل لهم ما عرفه من كلمات قليلة من الفرنسية في مقابل أن يحصل منهم على نقود، أو على الأقل على نفقة منهم، حين يرافقهم.

عرف سعيدان، وهذا هو اسمه، بمجيء ثني بن منصور المنثني مع والده، ففرح بذلك لغرض في نفسه، وفرح ثني بلقائه لأنه وجد فيه من يستطيع أن يتكلم معه بالعربية، وجد فيه شيئاً أهم من ذلك، وهو أنه يستطيع الإجابة على تساؤلاته الكثيرة عن أشياء يرى مظاهرها ولا يعرف ما وراء ذلك، وربما كان من أهم تلك الأشياء ما يتعلق بالعواطف التي لابد من أن يفكر بها شاب مثله في عنفوان شبابه، وكمال صحته وبخاصة مشاعره تجاه (جزوفين).

لا سيما بعد أن أخذ ورعه من كثير من الأشياء هنا يخف، ومنها

النظر في وجوه النساء، بل وغير الوجوه، وكان يود أن يتحدث في هذه الأمور مع شاب مثله.

قاله له سعيدان:

وش أنت تسوي كل هالمدة؟ وكان مضى له نحو أربعة أسابيع في باريس؟

فأجاب ثني:

أبداً، قاعد عند أبوي بالمستشفى، تعرف إنه ما يجيه أحد ويحتاج من يوسع صدره.

فقال سعيدان: لكن يا صالح، أبوك المريض وأنت صحيح وشاب، وهذي باريس مدينة النور مدينة الحرية.

وهنا تنبه ثني إلى المعنى السيئ لكلمة الحرية الذي كان يعرفه من قبل، وكان يسارع بالإنكار الشديد على من ينطق بهذه الكلمة من دون أن يقرن ذلك بالاستعاذة والدعاء بإبعاد تلك الحرية عن بلدان المسلمين، إلا أنه هنا لم يفعل، وإن كان حتى الآن لا يستسيغ هذه الحرية، بل إنه لم يعرفها حق المعرفة.

ولذلك حول حديثه مع سعيدان وجهة أخرى فقال:

أنا يا خوي يا سعيدان مصكوك علي بها الحجرة كل الوقت، ولا أدري ولله الحمد عن شيء.

فاستنكر سعيدان قوله وقال: كيف تصير ببلاد النور وترضى إنك تحبس نفسك؟

فقال ثني: وش لون اطلع من المستشفى، وأنا ما أدري وين أروح، ولا أعرف هرجهم؟

وهنا واتت الفرصة سعيدان فقال بحماس وبتظاهر بالطيبة: من جهة هالموضوع لا تهتم، أنا أخوك وأعرف هالديرة، وأعرف هرجهم، أروح أنا وياك نتفرج وأوريك اللي فيها، أنت أخوي ولا بيننا وبينك تكليف، ووافق (ثني) على الخروج مع سعيدان لمدة حددها لا يكون والده محتاجاً إليه فيها.

وقال له سعيدان ببراءة مصطنعة: خذ فلوس معك يمكن نحتاج لهن، ولم يكن صالح قد فكر في هذا الأمر؛ لأنه ظن أن الخروج من هنا مثل الخروج من البيت في بلاده لا يحتاج إلى نقود إذا كان المراد مجرد الخروج، وفهم سعيدان ذلك فقال:

هالديرة ما هي مثل ديارنا الله يعمر ديارنا هذي ما تروح من محل إلى محل إلا بفلوس لأنها كبيرة لا بد تركب، ولا تشرب إلى احتجت إلى شرب إلا بالقروش، وكان صالح يتسلم مصروفاً للجيب مقرراً من السفارة للمرضى الذين ترسلهم الحكومة السعودية للعلاج هنا، فأخذ معه شيئاً منها لم يرضَ (سعيدان) في أول الأمر غير أنه لم يشأ أن يصدمه بطلب المزيد في هذه الرحلة من صحبتهما، أو على الأدق من استغلاله لتلك الصحبة.

العالم المفترس

شق على (سعيدان) أن يسأل (ثني) عن كل شيء رآه، بل وعن تفسير بعض الأشياء التي يرى مظاهرها ولا يعرف حقيقتها، ولكنه لم يشأ - أيضاً - أن يصدمه بأن يبينها عن الاستفسار وكثرة السؤال، طلباً لعدم تنفيره.

ولقد تذكر (سعيدان) أنه عندما رأى باريس على حقيقتها كان مثل (ثني) في كثرة استفساراته عن الأشياء التي كان يراها لأول مرة، ومع ذلك لم يعذر (ثُنَيًّا) فيقلل من لومه على كثرة أسئلته التي شملت الركوب في حافلة امتطياها، إلى طريقة الجابي في استخلاص الأجرة، وكيفية نزول الناس وركوبها فيها.

والأكثر فضولاً قوله: ماذا يفعل هؤلاء الناس الذين يصعدون وينزلون في هذه السيارة؟

وكانت الأسئلة أكثر، والفضول أعظم، وإن لم يكن في الواقع من عالم كله مجهول لديه، وذلك عندما دخلا مشرباً صغيراً بعد تمشية قصيرة، فرأى ثني رواده يشربون أشياء لا يعرفها، بعضهم واقف، وبعضهم جالس على كراسٍ فيه معدودة.

كانوا كلهم يشربون مشروبات مسكرة في أصلها، بعضها خفيف كالجعة (البيرة)، وبعضها ثقيل كالنبيذ، ولكنهم لا يكثرون منه إلى درجة أن يسكرهم.

وسأل (ثني) (سعيدان) ببراءة ساذجة عما يشربه هؤلاء القوم؟

ولم يشأ (سعيدان) كذلك أن يصدمه بإخباره بالحقيقة، فقال:

هذا شيّ يشربونه مثل (الشربيت) اللي يباع بالخارج، وطلب (سعيدان) لنفسه كأساً من الجعة (البيرة)، و(لثني) كأساً من عصير البرتقال.

شرب ثني كأس البرتقال وهو يتفرج برؤية الداخلين والخارجين والمتحدثين اللابثين في المشرب، وهم من أصناف من الناس مختلفة.

وساورته الشكوك عندما رأى بعض الشاربين يرفعون أصواتهم، ويكادون يخرجون عن أطوارهم في الحديث فقال في نفسه:

يعني هم يشربون خمر؟

وكان يرغب في قرارة نفسه أن يرى الخمر المحرمة، وإن كان من أبعد الناس في هذه المرحلة عن مجرد الاقتراب ممن يشربها، ولكنه يريد أن يراها من باب المعرفة.

غير أنه أجاب نفسه بنفسه على تساؤله بقوله:

أبداً هذي ما هي خمر، الخمر اللي يشربها يسكر، وهذولا ما همب سكرانين.

انشرحت نفس (سعيدان) بعد أن انتهى من تناول كأسه الثاني من الجعة، وبخاصة أن القيمة كانت من جيب ثني دون أن يشاوره، أو دون أن يعلم حتى مقدار تلك القيمة.

وانشرحت نفس ثني حينما دخل في قلب عالم باريس المفترس

الذي لم ير منه في هذا اليوم إلا الجانب الخارجي، أو قل إلا الطلاء البراق الذي قدر له أن يظل في اختراقه لمدة أيام قبل أن يصل إلى حقيقة هذا المجتمع الذي هو أشبه ما يكون في داخله بالغابة التي لا يصمد فيها إلا القوي في مشاعره وتصرفاته، أو الضعيف الذي يتقوى بضعفه الأقوياء.

لذلك قال (سعيدان) لثني:

تعال أوريك الشانزليزيه أعظم شوارع باريس، فخرجا فركبا حافلة أوصلتهما إلى مكان بالقرب من هذا الشارع الذي هو أشبه بعرض للأزياء والألوان المترفة في باريس التي هي قمة القمة في الأناقة والبهرجة في العالم.

وسارا في أرصفة الشارع العريضة وسعيدان يصفر ويكاد يطير من فرحه بهذا الصيد السمين الغرير (ثني) الذي هو أيضاً يكاد يطير من فرحه باستجلاء هذا العالم الساحر الغريب الذي لم يكن يتصور أنه سيكون له بمثابة الغراء الذي يصطاد به الطيور، أو الوحل الذي تتمرغ فيه الدواب مكرهة، وإن كانت قد استسهلت الدخول فيه في أول الأمر.

رأى ثني واجهات المتاجر المترفة، والأرصفة العريضة، والسيارات الفارهة، ومقاهي الرصيف المحجوزة بالزجاج عن لفح البرد، ولكن ذلك لم يؤثر في نفسه كما أثر فيها منظر الحسناوات المتأنقات في مناظرهن، أو في تصرفاتهن حتى في المشية التي هي إغراء في إغراء.

ورأى في بعضهن من الجمال الظاهري أكثر مما رآه في جوزفين، غير أن (جوزفين) كانت حبه الأول في باريس، وقد دخلت قلبه بالفعل، واستأثرت به دون غيرها من بنات هذه البلاد، وقد أعجب بهذه الجولة وطلب المزيد منها عندما عاد مع سعيدان الذي كان أكثر إعجاباً بها، فإنه ضمن أن حيلته قد فعلت فعلها في ثني، وأنه قد وقع في شباكه كما وقع فيها غيره من الأغرار الوافدين إلى باريس، الذين كان يحتال عليهم، ورغم أنه يحتال لهم ليدلهم على خفايا هذه المدينة الكبيرة المختلفة، وهو في الحقيقة يعيش طفيلياً على حسابهم كما تعيش الجراثيم على جسم الإنسان، ولا تكتفي بذلك وإنما تسعى في تدميره.

عاد ثني متأخراً إلى والده، فوجده قلق عليه قلقاً عظيماً، لأنه لم يكن قد اعتاد أن يبتعد ابنه عنه مثل هذه الفترة، وخاف أن يكون قد أصابه مكروه، كما كان يخاف عليه ذلك وهو طفل، وبخاصة أن العالم الذي يقع خارج المستشفى هو بالنسبة إلى الأب عالم مجهول لا يأمن المرء فيه مكاره لا يستطيع حتى تحديدها.

فعلق والده على ذلك بقوله:

يا وليدي، وش لنا ولديرتهم، ديرتهم لا تصلح لنا ولا نصلح لها، الله يعيدنا لديرتنا اللي ما نصلح بلاها، والله يا - وليدي - إني أعد الليالي والأيام لنا بها الديره، وش يقول الدكتور عن العلاج؟ متى يقضي؟ ونرجع لاهلنا؟

فقال ثني: وش يعرفني بكلامه يا ابه؟ إلى جا راعي السفارة اللي يعرف هرجهم يسألهم ويخبرنا، وجد ثني في هذه الجولة راحة عظيمة لأنها أنقذته من البقاء حبيساً في المستشفى، ولأنها أتاحت له فرصة لإطلالة على هذا العالم الباريسي الغريب بحيث أصبح يتطلع إلى تكرارها.

حتى إن (جوزفين) التي لم تكن تفارق ذهنه قد غابت عنه لفترة من جولته.

وبعد يومين من ذلك زارهم (سعيدان) بحجة الاطمئنان على صحة المريض، وإن كانت الحقيقة أن ذلك كان من أجل الاستئثار بنقود ثني، وجره إلى أن يكون آثماً مثله، وكانت الخطة تقضي أن يكون الخروج في هذه المرة بعد المغرب، وهي فترة يكون الوالد فيها على وشك النوم، ويمكن أن ينام في أول الليل، دون أن يشعر بفقد ابنه، كما هي عادته في التبكير في النوم.

وقال سعيدان لثني: كثر من الفلوس معك لأننا الليلة نبي نروح لمحل بعيد.

وذهب به إلى شارع (بيغال) زاعماً أنه سيريه باريس في الليل.

وبالفعل قصد به ذلك الشارع، وتناول سعيدان العشاء في أحد مطاعمه الفاخرة، أما ثني فقد طلب له شراباً من عصير الفاكهة، لأنه كان قد تناول عشاءه في المستشفى، وبعد العشاء طاف به بعض المحلات الموجودة في شارع (بيغال) وما تفرع منه من شوارع ضيقة.

فرأى ثني فيها أشكالاً من النساء لم ير مثيلات لهن في المستشفى، ولا في شارع (الشانزليه)، ولفت نظره خاصة منظر الواقفات في الظلام، أو الأنوار الخافتة، فسأل (سعيدان) عن ذلك، فذكر أنه لا يعرف من أمرهن شيئاً فعل ذلك رفقاً بثني من أجل أن يستدرجه إلى الشرك شيئاً فشيئاً.

ثم رأى امرأتين تنطلقان من أحد المحلات في الشارع إلى مكان مجاور، وهما على حالة من التبرج ليس بعدها إلا العري الكامل، وذلك لكونهما من القبيحات الوجوه، المتقدمات في السن، اللاتي أردن أن يعوضن بإظهار ما تحت الثياب تعويضاً عن شباب قد ذاب، وذراً للرماد في عيون الذين لا ينظرون ببصائرهم، وإنما ينظرون بشهواتهم، وقد استنكر منظرهن، وألح على سعيدان أن يخبره بأمرهن.

فقال سعيدان: هذولي من الساقطات.

أمرهن بما ضرهن، وفهم من كلمة الساقطات إنها تعني الساقطات الأدب، لا المومسات، وإلا لكان جن جنونه، وتكدر صفو سعيدان معه.

ثم انتقل به إلى حي مونبارس، ومر به على مواخير اللهو وأراه الغانيات، وقد جلسن خلف الواجهات الزجاجية يعرضن الرذيلة، ومعها السقوط في الأمراض والأعراض الشريرة الفاسدة، وذلك مقابل أن يدفع الرجل نقوده، ويدفع معها صحته وطهارته، حين يعاقر

ابنة الحان التي يقرنها الشيطان بالعاهرات في هذا الميدان، بحيث يصدق على حاله وربما جاء في مقاله قول الشاعر :

غدوت عليل العقل والدين فالقني

لتــعرف أنباء الأمـــور الصحائح

ورأى ثني في هذه الليلة عالماً لم يفهمه، وكان غموضه بالنسبة إليه سبباً في أن يمضي في السعي إلى اكتشافه رغبة في اكتشاف المجهول، وفراراً من بقائه حبيساً في المستشفى.

وقد عادا مع منتصف الليل فوجد ثني والده نائماً فارتاح لذلك، ورجا في ذهنه أن لا يكون قد استيقظ أثناء غيابه وافتقده.

وكان من عادة ثني أن يستيقظ مع الفجر فيؤدي الصلاة في وقتها مع والده الذي كان يصلي أحياناً واقفاً وأحياناً جالساً إذا أعجزه المرض عن الوقوف، فلم يستيقظ في تلك الليلة للصلاة حتى أيقظه والده وبالغ في ذلك، فقام للصلاة متأففاً لأنه لم يحصل على كفايته من النوم، وإن كان قد شعر في نفسه أنه قد ارتكب إثماً عظيماً بنومه عن الصلاة كما يفعل من يأتي خطيئته لأول مرة أو يترك واجباً يتحتم عليه القيام به.

وجاءت (جوزفين) في الصباح، وكانت تتطلع إلى أن تلقى (ثنيا) متلهفاً للقائها كما كان كل يوم، غير أنه لم يكن كذلك في هذا اليوم، فإن السهر وكونه رأى عشرات بل مئات من النساء بعضهن فيها شبه من (جوزفين) قد فعل فعله في نفسه، وإن لم يقلل ذلك من حبه لها، أو

من منزلتها في مشاعره.

وتذكر شيئاً كان غائباً عنه وهو أنه لم يسأل سعيدان عن (جوزفين)، ومشاعره نحوها، فاعتزم أن يفعل ذلك في خروجه التالي معه.

وكان الخروج في هذه المرة أسرع، وكان مع ذلك أخطر من الأول.

فقد أراد (سعيدان) أن يخطو به الخطوة التالية في طريق الضلال أو لنقل: إنها الدركة الثانية من دركات الهاوية، وكان قد مهد لذلك تمهيداً في الخروج الثاني.

قال سعيدان لثني وهما ينزلان من الحافلة في أحد الشوارع الضيقة في باريس:

ما تخبر الرقص اللي عندنا من أول؟

فأجاب ثني: بلى اللي يرقصنه البنات؟

فقال سعيدان: نعم، بس يرقصن هنا حريم كبار يورون الناس رقص بلادهم فرنسا.

ولم يكن رقص البنيات الصغيرات في بلادهم يدل على ما يدل عليه الرقص في هذه البلاد من مخاصرة للنساء، وتعرٍّ للراقصات، فضلاً عما يتبع ذلك من ضرب المواعيد، وما يترتب عليه من معاقرة الخمور والانغماس في الفجور.

وقال ثني لسعيدان ممستفهماً: يعني اللي يرقصن حريم ولا يستحن؟

فضحك سعيدان ضحكة سخرية من ثني وقال:

كل شيّ موجود بها الديرة إلا الحياء، المرة مثل الرجل، تطلع تروح وتجي وتشتغل وتصادق الرجال.

فأجفل ثني من قوله وخاصة: أنها تصادق الرجال.

ولم يكن يتصور قبل ذلك إلا أن هذا السفور والظهور للنساء في باريس مرجعه إلى دينهم المسيحي الذي لا يحرم كما يحرمه الدين الإسلامي الحنيف، وقد ظن لسذاجته أن هذا السفور لا يترتب عليه فجور، وإنما هو أمر اتخذوه من دون أن يكون فيه ما يتعارض مع بقاء المرأة لرجلها إذا كانت متزوجة، أو لنفسها إذا لم تكن كذلك.

لذلك علق على قول سعيدان متسائلاً:

يعني أن المرة بها الديرة تروح للي تبي من الرجال، وتقعد معهم ولا تقول حكومتهم شي، ولا يقولون أهلها شي؟

فأجابه سعيدان بتهكم ظاهر:

إيه، إيه، المرة هنا حرة تروح لرجل أو رجلين حسب مزاجها، المهم عندهم أنها تحب الرجل.

والرجل اللي ما يلقى مرة تحبه يقدر يروح لمحلات خاصة يلقى فيها حريم بفلوس.

فازداد جزع ثني وقال: أعوذ بالله، أعوذ بالله، أعوذ بالله.

أنا ظنيت أن المرة عندهم ما تغطي وجهها بس مثل بعض البدو عندنا.

فعلق سعيدان بصوت منخفض سمعه ثني بقوله: يا مسيكين تحسب المرة عندهم مثل المرة عندنا محبوسة بالبيت، واللي ما تزوج منهن نقعد بلا شي هي محرومة من الرجال والرجال محرومين منها؟

فقال ثني بعصبية ظاهرة: أعوذ بالله منهم حريمنا أحسن ألف مرة منهم، المرة عندنا تقعد بدارها لا تفتن الرجال ولا تنفتن بهم إلى ما يجيها ابن الحلال اللي ما يشوف غيرها ولا تشوف غيره، ما هيب مثل حريم ها الديرة اللي يسوفون الرجال كلهم، ويشوفونهن الرجال كلهم.

وش لون أنا إلى صرت ما اناب مزيون، والاّ كبير السن، وامرتي مزيونة أو صغيرة، وهي تشوف اللي أزين مني؟

لا بد أنها تحقرني ويفسدونها الناس عليَّ.

الزين - يا خوي يا سعيدان - أن المرة ما يشوفها إلا زوجها وأهلها.

ولم يعلق سعيدان على هذا الكلام الذي لم يؤثر فيه من قليل أو كثير؛ لأنه كان قد فتن بهذه الحياة الفرنسية الغربية؛ بل غرق فيها إلى أذنيه.

ولكنه علق على ذلك في نفسه بقوله:

يبي ها المغفل حريمهم يصيرن مثل حريمنا حتى أننا ما نشوف منهن ولا واحدة، يبيهن يصيرن مثل هالبدو، يقصد قومه الحضريين، اللي يذبحون الرجال اللي يناظر حريمهم، ولو نظر حتى إلى صار في

داره فتحة أو شق في جدار قاموا عليه وسدوه يقولون: لا تناظر حريمنا، وين هم من هالأجاويد اللي نتفرج على أجمل حريمهم بلاش، وإلى بغيت أكثر بس خل معك فلوس.

دخلا مرقصاً كبيراً كانت على مسرحه فرقة موسيقية تعزف موسيقى هادئة يبدؤون بها قبل الموسيقى الراقصة الصاخبة التي لا تعزف إلا لقوم نشاوى من نشوة الشرب وربما أيضاً من نشوة الحب على حد قول الشاعر:

سُكْران: سُكْر هوى وسُكْر مُدامة

ومتى إفـــاقة من بـــه سُـكرانِ

وجلسا حول مائدة صغيرة عليها أربعة مقاعد.

وجاء النادل أو خادم المائدة، وهو ينحني بأدب مصطنع، ويستفهم عن المشروب فقال سعيدان: (بير بورموا).

أي: لي جعة، و(أورنجوز بور مسيو) أي: وعصير البرتقال للسيد، يقصد ثنياً.

وجاء المشروب، وظلا قليلاً يتحدثان في حديث لا يخرج عما قصصناه سابقاً من استنكار ثني لكل ما في هذا المكان، وتبرير سعد له بأن قصده أن يريه شيئاً جديداً من حال القوم؛ لأن هذا هو الأمر الذي سمعه من ثني نفسه مبرراً بقوله الدخول إلى هذه المحلات.

وطلب سعد لنفسه كأساً آخر من الجعة، دون أن يطلب لثني شيئاً، وكانت الموسيقى تعزف هادئة فأخذ سعد يتمايل برأسه وبجسمه

يمنة ويسرة كما يفعل الطرِب، ولم يخطر ببال ثني أن سبب طربه هو ما شربه من الجعة، لأنه لم يكن يظن إلا أنها (شربيت) أي شراب حلو.

ولكن الذي عجب منه هو أن يطرب سعيدان لهذه الموسيقى التي تصدع الرأس ولا يفهم منها شيئاً مع كونه أيضاً لا يفهم شيئاً من الموسيقى العربية لأنه لم تكن الإذاعة قد افتتحت عندهم في ذلك الوقت، ولم يكن المذياع موجوداً لديهم، فقال لسعيدان: هاللي يدقون عليه وراما يوقفونه؟

أوذانا بحسه.

فقال سعيدان هازئاً:

هذي الموسيقى، وكان ثني قد قرأ عن الموسيقى في معرض الكلام في بعض الكتب عن اليونان، وتعلم علمائهم الموسيقى، وكان يلفظ بها بكسر القاف قبل الياء.

وكرر ثني ذلك على سعيدان، فأجابه سعيدان ليوقفه عن ذلك قائلاً:

يقولون عندنا بالامثال: ((إلى جيت قوم فخذ سلمهم، والا رح وخلهم)).

فانتهز ثني الفرصة وقال: إي والله نروح ونخليهم، ولكن سعيدان لا يريد ذلك، بل يريد أن يورطه حتى ينال منه ما ينال من مال، وحتى يكون مثله في الحال.

لذلك قال له: لا، ما نروح إلا عقب ما يرقصون.

وبعد قليل اعتلت المنصة إحدى الراقصات وأخذت ترقص، وغيرت الموسيقى عزفها، فصارت موسيقى راقصة كانت تتمايل على إيقاعها رؤوس الشاربين الطربين مع جسد الراقصة التي ذكروا أنها ترقص رقصاً شرقياً.

ولم تكن بالغت في التعري من الملابس، إلا أن تثنيها وما يصحب ذلك منها من غنج وتظاهر بالدلال جعل ثُنَيَّاً يتقزز من المنظر، وينهض قائلاً لسعيدان:

شيئاً الله يخزيها، ما شفت وش تسوي بنفسها ما تخاف الله، لكن ما هيب الشرهة عليها، الشرهة علي اللي يجي يشوفها، وكان هذا غمزاً في سعيدان عن غير قصد.

ولكنه غمز لم يبال به، لأنه كان قد غرق في حمأة هذا المجتمع الغربي إلى أذنيه، فصار حاله كقول الشاعر:

أنا الغريق فما خوفي من البلل؟

وتثاقل (سعيدان) في مقعده وهو يقول لثن:ي ما نروح وهم آخذين ثمن قعدتنا.

ولم يتصور ثني أن الجلوس في هذا المكان له ثمن، ولم ير سعيدان دفع نقداً ثمناً له، لذلك قال:

وش هو الثمن اللي دفعناه لهم؟

فأجاب سعيدان: هالشراب اللي شربناه بالدكان بريال وهنا بعشرة.

فهاله الفرق في الثمن، وتصور أن دفع عشرة أضعاف الثمن إسراف لا يجوز.

فنهض ثانية من مقعده، وكان قد جلس فيه من قبل، فأمسك به سعيدان وقال:

يا خوي اقعد أنا أبي أشوف، وإن كان أنت ما تبي تشوف هالمرة التي ترقص لقها قفاك، أو غمض عيونك عنها!.

فألقى إليها ثني قفاه بالفعل، ولكن لم يستمر على ذلك إذ حدثته نفسه الأمارة بالسوء أن يرى الراقصة، وبررت ذلك له بالعذر المعهود، وهو أنه يريد أن يرى دون أن يستمتع، وكانت هذه هي حالته بالفعل في أول الأمر، غير أن الاستنامة للمحظور، والركون إلى صغيره تجر إلى الوقوع في كبيره.

إذ أخذ يخالس النظر إليها في أول الأمر حذراً من لوم سعيدان له، ثم أخذ ينظر بالفعل، وفي آخر الأمر صار يعجب من فعلها بجسدها، ويعجب للدونته.

لا سيما مع الموسيقى الراقصة التي يشبه إيقاعها إيقاع دُفٍّ كان قد سمعه في بلاده في إحدى المناسبات، وهي زواج وجيه من الوجهاء.

وبعد أن اطمأن سعيدان إلى أن صاحبه (ثنياً) قد زايله النفور من المكان قال في نفسه: هذي حاله وهو ما ذاق بس شاف، وش لو يذوق كان على ما قال القايل: ((من ذاق عرف)).

وهنا اقتربت إحدى الفنانات العاملات في الحانة (البار) من

الجالسين وعرضته على ثني أن يطلب لها كأساً من الشراب تشربه معه، ولم يفهم بالطبع ما طلبته، ورجع إلى سعيدان يستفهمه عن ذلك.

وكانت اختارت ثنياً لأنه كأن أجمل طلعة، وأكثر وجاهة من سعيدان؛ بل إنه يبدو وهو بجانبه كأنما هو السيد معه خادمه.

وأجابها (سعيدان) بقوله بالفرنسية:

(ميرسي) السيد لا يعرف الفرنسية، وليس لديه استعداد للشرب مع أية امرأة.

وخرجا من الحانة عند منتصف الليل، وعجب ثني أنهما تركاها وهي حافلة بالناس رغم هذا الوقت المتأخر، وقد أبدى هذا لصاحبه (سعيدان) الذي لم يشأ أن يخبره بالحقيقة، وهي أن جنود الليل هؤلاء هم نشاز في المجتمع الفرنسي الأصيل، وأنهم لا يمثلون الأكثرية الجادة العاملة منه التي تحيا حياة طبيعية، وإنما هم من الشاردين الضالين، المنكوبين، عاطفياً مثل (سعيدان)، أو من الغرباء الذين غرر بهم أصحاب أشقياء مثله.

وأن بعضهم من الوافدين إلى باريس لوقت قصير يريدون أن ينتهزوا الفرصة فيه فيتذوقوا من لهوها ما يعلمون أنه بهم لن يطول.

وقال سعيدان لثني: هذولا الفرنسيين مثلما تبغهم من حصل له قرشين ضيعهن بالطرب والكيافة، وهم ما عليهم أنفسهم، حتى العيال بعضهم مالهم حريم ولا عيال، وبعضهم له ولد واحد وامرته تشتغل وتعاونه على البيت، ما همب مثلنا الواحد يصير له عشرة بالبيت وهو

لحاله اللي يشتغل والباقين ياكلون عليه.

حتى البنت تشتغل إلى صار لها ثمان طعش سنة قالوا أهلها لها: تراك مسؤولة عن نفسك، اشتغلي وانفعي نفسك، وإلا اقعدي، حنا تعبنا عليك، وكدينا عليك هالسنين، ولا يمكن نستمر نكدّ عليك.

ثم أضاف قوله:

والغريب يا اخوي ثني إنها إذا اشتغلت ما نفعت أهلها بشيّ، ما تعطي أبوها ولا أمها شيئاً.

فقال ثني: وين تشتغل؟ ووش تشتغل البنت؟

فقال سعيدان:

تشغل كل شيء يشغله الرجل مثلما شفت من الممرضات اللي في المستشفى إلى هاللي يشتغلن بالمحلات إلى هالراقصات اللي شفت بالقهوة، وكان يسمى الحانة لثني بالقهوة لئلا ينفره ذكر اسمها الحقيقي.

فقال ثني: طيب وإلى فسد ت البنت؟ وش لون أهلها يسمحون تروح عنهم وتفسد.

فقال سعيدان: تفسد أو تصلح هي حرة، ما يهمهم هذا حتى إلى بغوا يمنعونها عن الشغل وشكتهم على الحكومة تجبرهم الحكومة على أنهم يخلونها تسوي اللي هي تبي ما دام أنها رشيدة بالغة ثمان طعش سنة، و...

فقاطعه ثني قائلاً:

رشيدة؟ وين هي والرشد، والله إنه مفارقها وهي مفارقته.

لاكن هذولا كفار، الله يعيذنا من حالهم. وهنا قاطعه سعيدان قائلاً:

كفار أو ماهمب كفار، هذولا اللي منظمين حياتهم شف هالشوارع والحدائق والصناعات، وحتى المستشفى اللي هنا يرحم حال ربعنا اللي ما عندهم شي.

فعلق صالح على ذلك بقوله:

لكن ربعنا لهم الجنة، لهم الآخرة، و في الأثر: ((لهم الدنيا ولنا الآخرة)).

فلم يصبر سعيدان على سماع ذلك كما كان يفعل مع ثني من قبل، وإنما قال:

يعني يخليهم يصلحون الأشياء الزينة بها الدنيا، وحنا نقعد مثلما حنا عليه من قلة التعلم والثقافة، وكان قد عرف هذه الكلمة دون أن يعرفها ثني، ونقول: لنا الآخرة وحنا ما ندري هي تحصل لنا أو لا، فنكون مثل الدنيا، وهنا زجره ثني مستنكراً ما فهمه من كلامه من شك في الآخرة، ففطن سعيدان إلى أنه قد اندفع بالكلام أكثر مما ينبغي فقال: أنا أعني أننا ما ندري وش موقعنا يوم القيامة، يمكن الله لا يقدر أن بعضنا تلحقه ذنوبه ويدخل النار، ما هنا أحد يضمن أنه من أهل الجنة!.

فأمن ثني على قوله وقال:

صدقت، الله يعفو عنا ويسامح، ما هنا أحد يدخل الجنة بعمله، وإنما يدخلها الإنسان بعفو الله ومغفرته.

وحتى الحديث عن الآخرة وما يصحبه من الحديث عن الأمور الدينية قد كرهه سعيدان، لأن حب التفرنج والزيغ عن الدين قد ران على قلبه.

وعاد ثني متأخراً إلى المستشفى أكثر من المرة السابقة، والأشد في الأمر عنده أنه وجد أنه قد صرف نقوداً أكثر، فقد كان سعيدان ينفق من مال ثني لأنه أي سعيدان يبدد ما يتلقاه من نفقة مقررة له من السفارة في فترة قصيرة على الأمور المضرة بدينه ودنياه حتى أصبح قد خسر الاثنين، والأدهى من ذلك أنه أصبح حتى فيما يشعر به بينه وبين نفسه لا يستطيع أن يعتبر الحياة التي كان يحياها في البلاد.

وتكرر مع ثني النوم عن صلاة الفجر، وكان أسفه على ذلك في هذه المرة أقل مما كان في المرة السابقة.

حتى عندما عاتبه والده على ذلك، وجد عتابه ثقيلاً على نفسه.

الانغماس في الوحل

تكرر خروج ثني مع سعيدان، وتكرر به التدرج من سيئ إلى أسوأ؛ حيث كان يمهد له لما هو أسوأ حتى وصل به الحال أن جعله يتذوق الجعة التي نفر منها في أول الأمر كعادته، ثم أغراه صديق السوء سعيدان هذا، فجعل يتدرج به في النزول من منزلة إلى ما هو أنزل منها.

حتى أهمل أمر والده، وصار لا يلبث عنده في الحديث والمؤانسة إلا قليلاً لأنه صرف وقته ما بين الخروج في الليل والنوم في النهار مما جعل والده يحزن لذلك، وإن كان لا يدري ما الذي دها ابنه، لأنه لم ير العالم الفاسد الذي رآه ابنه، ولم يجرب الدخول فيه، وهو شاب مشبوب العواطف تخلى عنه التوفيق.

بسبب عدم قهره لعواطفه في أول الأمر، ثم انسياقه وراء هذا الفساد الذي جره إلى مستنقع الحضارة الغربية التي يشكو المفكرون من أهلها أنفسهم منه.

ومن المحزن أنه هو وأمثاله لا يرون في هذه الحضارة الغربية الطاغية إلا هذا المستنقع وأمثاله، أما الأمور النافعة من العلوم التجريبية، وإتقان في العمل، والحرص على المصالح العامة، فإنه لا يراه، أولا يستطيع، لأنه يحتاج إلى جد وجهد وتعب لا يقوى على أن يحمل نفسه عليها.

بل إن هذا الإهمال والانسياق وراء الشهوة دون العقل الذي يراه الغريب الضائع ثقافياً في هذه البلاد يقابله عند أكثر الناس الانضباط في العمل، وتحكيم العقل في تحمل المشقة مما لا يستطيع أن يتحمله أمثال أولئك الضائعين المهملين.

كان أول من شقي بثني عن انحرافه نفسه أباه الذي هاله ما حل بابنه من التغير، وإن لم يدر سببه.

المصيبة الكبرى

ليست المصيبة الكبرى في ثني انسياقه وراء شهوته وإهمال أباه المريض، مع أنها مصيبة كبيرة، وإنما المصيبة الكبرى ذلك المسخ الثقافي الذي أصيب به حتى أصبح في فترة قصيرة لا يرى إلا ما تراه الحياة الغربية.

وما إهماله لأمر والده الشيخ المريض إلا واحدٌ من مظاهر هذا المسخ الثقافي الذي أصابه، فقد علم أن الفرنسيين ليس عندهم من البر بآبائهم شيء، وأن الابن لا يمرض أباه فضلاً عن أن يلازمه في كل وقت، ويقضي له كل ما يريد، وأنه علم ثم اقتنع بأن الابن إذا مرض والده وكان حفياً به فإنه يدخله مستشفى من المستشفيات، أما إذا أسن ولم يستطع القيام على نفسه بنفسه، فإنه يدخله في ملجأ من ملاجئ العجزة أو كبار السن!.

وهكذا صار يعامل والده من هذا المنطلق؛ بل إنه صار يمنّ عليه ما كان قد قام به نحوه من بر وحفاوة ناسياً أو متناسياً ما كان قد قام والده نحوه من تربية، وما ناله من تعب ومشقة في توجيهه وتأهيله للحياة في ذلك الوقت.

وذات مرة جاء ذكر هذا الأمر بني الأب وابنه فانبرى الابن يسفّه رأي أبيه، ويذكر أنه لم يعلمه ولم يثقفه، وإنما أدخله عند (المطوع)، ثم أمره بالأخذ عن المطوع إبراهيم الذي صار قاضياً للبلد بسبب عدم

وجود من هو أعلم منه فيه، ولأنه قاضٍ جاهل لقوم جهلة على حد تعبيره.

والذي كدر على الأب المريض عيشه أكثر أن ابنه صار يخالفه في كل شيء فكري، كما أنه لاحظ أنه لم يعد يقوم للصلاة إلا إذا أمره والده بذلك، وأنه ما من مرة أمر فيها بالصلاة إلا ذكر له أنه قد صلى من قبل.

أما كيف تحول ثني هذا التحول الذي هوى به إلى هذا المستنقع الثقافي الغربي، وكيف صار قريباً من المومسات والعاهرات، وكيف عاقر الجعة ونحوها، فإن راوي القصة لم يشأ أن يسرّ لنا تفاصيل ذلك مكتفياً بما سبق أن قصة من أمره في جراءته على ارتكاب الصغائر، وكيف كان جليس السوء (سعيدان) هو السبب المباشر في أن يخطو ثني الخطوة الأولى في الطريق المعوج إلى أنه بعد ذلك صار (سعيدان) يعجب في سرعة انزلاق ثني في الهاوية، حتى إنه مرة حاول أن يسأل (ثنياً) عن ذلك، ولكنه قلب السؤال إلى صفة أخرى فقال: وش لون يا ثني أشوفك غلبتنا في علوم هالديرة على ما قال المثل: ((علمناهم الطوافة وسابقونا البيبان الكبار)).

ولم يجب ثني على هذا السؤال لكونه يعلم أن سعيدان يعرفه، وأنه كان السبب الأول له.

وتخيل راوي القصة أن لسان حال ثني ينشد مع الشاعر:

وكنت امـــرءاً من جند إبليس فارتقى

بي الحال، حتى صار إبليس من جندي

لقد أنفق ثني كل ما كان أحضره معه من نقود، وكل ما وصله من المخصصات من السفارة، وباع حتى ساعة والده الأثيرة لديه، ولم يكتف بذلك، وإنما اقترض من أحد الموظفين بالسفارة مبلغاً من المال ذكر له أنه سوف يرده عليه، ولكنه لم يفعل حتى صار لا يجد من يقرضه لأنه يتلف أي شيء يصل إليه، وينفقه في سبيل الشيطان، حتى هداه تفكيره إلى الكتابة للمملكة، وطلب إرسال شيء من المال من والدته، فأرسلت إليه ما استطاعته، وما حصلت عليه من والدها.

العودة إلى الوطن

حسنت حال المريض، ورأى أطباء المستشفى أنه لا ضرورة لاستمراره عندهم، فأعطوه أدوية يستعملها في بلاده.

وكان أصبح يسير على قدميه دون مساعدة، وصار يتناول طعامه بهيئة معتادة.

وأعد مندوب السفارة كل ما تحتاجه عودة المريض وابنه، وكان ثني لا يريد العودة بطبيعة الحال، ولو كانت عودة حميدة لوالده، لأنه كان قد أغرم بهذه الحياة الفرنسية اللاهية، أو لنقل إذا أردنا الإنصاف: إنها الحياة على هامش الحياة الفرنسية الجادة، ولكن لم يكن بيده إلا الرحيل، لأنه أولاً لم يستطع أن يحصل على أي مبلغ جديد من المال، ولأنه لا يمكنه البقاء مهما عمل، لأن مندوب السفارة ذكر له - من باب التخويف عندما رأى منه التسويف بالرجوع للبلاد - أنه بإمكان السفارة أن توعز إلى الشرطة الفرنسية فتسجنه، أو تبعده بالقوة كما فعلت ذلك مع غيره من الأجانب غير المرغوب في بقائهم في بلادها.

وطارت الطائرة من مطار أورلي في باريس، قاصدة القاهرة عكس ما كان من اتجاهها في القدوم، وهذا وحده هو الذي تغير فيها أمام ثُنَي، فإنه عاد بشخصية أخرى، كان حملاً وديعاً قد هذبه الدين، وغذته التربية الصالحة، فصار ذئباً أغبر يؤذي ويهاجم حتى عندما لا تكون هناك حاجة للهجوم، وإن محبته في الإيذاء كالذئب الذي يقتل

أكثر من شاة، مع أنه لا يحتاج إلا إلى بعض شاة واحدة.

وحتى مظهره قد تغير، فقد أصر على البقاء باللباس الإفرنجي بالطائرة، وعندما قال له والده:

يا وليدي، البس هدومك انت تبي إن شاء الله تاصل لاهلك،

رد على والده بعنف قائلاً:

أستحي ألبس هالخلقان.

ولم تكن ملابسه العربية خلقاناً، بل كانت نظيفة صالحة قد غسلها له أهل المستشفى وكووها كما هي العادة.

وكانت الشهور الستة التي قضاها في باريس مع والده قد أكملت هدم كل ما كانت بنته السنوات السابقة من طفولته حتى شبابه، وذلك لكون الهدم أيسر من البناء، لا سيما إذا كان قد تعاون على هدم البيت أهله مع الأعداء.

وأهل البيت، الذين تعاونوا على هدم ثني هم: نفسه الأمارة بالسوء، وعزيمته الخوارة، وتفريطه بما كان قد تعلمه من أمر دينه.

ثم جهله بالمصير الأسود الذي ينتظر أمثاله لو بقي في فرنسا، لأن الذي شغل وقته كله في اللهو، ولا يعمل عملاً جاداً ليس مكانة في الحياة هناك، وإنما ينتهي به طريقة المعوج لنهايتين لا ثالثة لهما، وهما:

مستشفى المجانين، أو سجن المجرمين.

لقد أصبح ثني غربياً في تفكيره كله، وإن شئت قلت: مستغرباً في كل ذلك، لأنه لو كان غربياً كالفرنسيين المثقفين لكان للأمور الجادة

المادية مكان من تفكيره وتقديره كما كانوا يفكرون.

والأدهى من ذلك أنه لا يشعر - الآن - حتى مجرد الشعور بأنه كان خاطئاً، فضلاً عن أن يكون نادماً على ما فعله بنفسه، لأنه قد أصبح كما قلنا مَسْخاً، والمسخ لا يشعر بأنه ممسوخ، وإنما يرى أن هذا هو الذي ينبغي أن يكون عليه، وأن هيئته الأولى هي التي كانت خطأ.

استقبل أهل الدار عائلهم منصور المثني وابنه ثنياً استقبالاً حافلاً عبرت عنه الدموع والشكوى من طول الفراق، وكان بعضها دموع فرح، وبعضها دموع شوق دفين.

أما الفرح فإنه كان بمظهر الصحة والعافية التي جاء بها الأب المريض، ومظاهر الصحة الظاهرة على وجه ثني ابنه، وأما الشوق الدفين فإنه شوق أهل الدار إلى عائلهم.

وكانت (هيلة) زوجة منصور المنثني أكثرهم فرحاً لأنها استقبلت زوجها وابنها بخير.

إلا أنه كان بالنسبة إلى ما رأته من علامات التغير على ابنها ثني فرحاً ممزوجاً بالدهشة؛ إذْ لم تفهم شيئاً منه بحكم تربيتها التي لم تسمع فيها حتى في الحكايات عما في تلك البلدان الكافرة البعيدة.

وأخذ منصور المنثني يحدث أهل بيته عما شاهده في المستشفى وفي الطائرة من أحوال أولئك القوم الكفار بما كان أكثره يصعب حتى تصوره بالنسبة إليهن فضلاً عن تصديقه، وعندما وصل إلى ذكر ما كانت (الحريم) اللاتي يسمين ممرضات يفعلنه به خاصة من حفاوة

وعناية حتى إنهن كن يساعدنه على غسل جسمه عندما كان عاجزاً عن القيام بذلك.

فغرت أفواه السامعات من أهل بيته وقريباته، وقالت ثلاث منهن من فم واحد:

هوه أجل شفتهن، هن كاشفات وجوههن، ما يستحن على روحهن؟

وتحركت غريزة الغيرة عند المرأة في نفس زوجته فقالت:

عساهن بالنار، الكلبات وش لون يقربن من رجال ماهمب مرة رجالهن.

فرد منصور على ذلك كله بصوت رزين بقوله:

هذولي الله يهدينا وإياكم كنهن رجال لابسات لباس الرجال الأبيض، ويشتغلن مع الرجال، بس إنهم جابوهن يشتغلن بالصحية اللي أنا فيها علشان أنهن ألطف للمرضى من الرجال.

وقد كان قد سمع هذه العبارة بالذات من مندوب السفارة في باريس.

فأسرعت زوجته تقول:

الشرهة عليك أنت يا أبو ثني، اللي تخليهن يكشفن وجوههن عندك، ورا ما نهيتهن وقلت: خافن الله، وغطن وجوهكن إلى بغيتن تجن لمي.

وفهم ما رمت إليه، وما تحرك في نفسها، وقال: الله يهديك، لا تغلطين، هذولي ما كشفن وجوههن لأجلي، أو لأجل غيري، هذولي

طول عمرهن كاشفات، لأنهن كافرات ما يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ولو قلت لهن: غطن وجوهكن ما طاعن، وبعد يمكن ما عندهم غداف سود، ما شفت ولا وحدة منهن عليها غدفة.

فاطمأنت زوجته لكلامه بعض الاطمئنان وقالت: وراهن يخلن كذا؟ ورا رجالهن ما يغصبونهن على الغطا والستر؟

المرة ما لها إلا الستر؟

فعلق ابنها ثني على ذلك وهو يكتم غيظه من تفكيرهن وتفسير والده لحال الممرضات وقال: هذولي يا امه متعلمات فاهمات، ما أحد يسوي لهن شي أو يهكّ عليهن، هن حرات ماهمب مثل بعض حريم أهل ديرتنا يضحك عليها أي رجل.

هذولي ما يقدر عليهن إلا الرجل اللي هن يحبنه.

وهنا انزعج النساء فتلافى تأثير ذلك عليهن بقوله:

يعني ما تتزوج المرة إلاّ رجّال يدخل نظرها، ما هوب مثلنا تدخل المرة على الرجل وهي ما تدري وش ها الرجّال اللي دخلت عليه، مثل اللي يدخل لحجرة مظلمة، أو مثل اللي يدس يده بالجحر ما يدري وش اللي فيه.

وذكرت أمه أنها بالفعل كانت قد زوجت من والده منصور دون أن تراه أو توافق على زواجها منه، ومع ذلك فإنها رأت أنه زواج موفق، لذلك قالت:

ولو، يا حليلنا وحليل عادتنا - يا أهل نجد - تدخل المرة على

الرجل وهي ما تعرفه، وعقب مدة تصير أم عياله، وهو يصير أبو عيالها، ما تواطن فراقه ولا يواطن فراقها.

لقد وجد (ثُنَيّ) أن كل شيء في بلدته قد تغير في عينه، فذكر بيوت الراحة الحمامات الإفرنجية في باريس، ورأى في شارع بلدته المغبر غير المزفلت صورة مناقضة لشوارع باريس.

وحتى جيرانه والذين كان يعرفهم قد تغيروا في عينه، فرأى في وجوه بعضهم وعيونهم، وبشراتهم ما سماه بالمرض، وأرجع ذلك كله إلى التخلف ونقص التعليم، لذلك كان ينادي في كل مجلس حل فيه بالتعليم، فكان الذين يقرؤون ما وراء السطور من كلامه يردون عليه بأن التعليم موجود - ولله الحمد - فالمدارس يريدون بها الكتاتيب هي موجودة، والمطاوعة يعلمون الصغار، ومطاوعة المساجد يعلمون الكبار، والبلد فيها عدد من القراء والكتبة يفوق حاجتها منهم.

حتى إن واحداً منهم قال له:

يا ثني يا وليدي، ديرتنا فيها علم كثير، أنت ما تدري أن القرية الفلانية يوم جاهم خط من ديرة ثانية ما لقوا من يقرأه، وأرسلوه مع رجال إلى قرية غيرها يقرأه، ويخبرهم باللي به، وأنت نسيت يا ثني قصة القرية الفلانية التي ضيع أهلها الجمعة فلم يدروا أهي غداً أو بعد غد، حتى أركبوا إلى المدينة راكباً يأتيهم بالخبر اليقين.

ولم يكن ثني قد نسي قصة القرية التي نسى أهلها يوم الجمعة فلم يعرفوا في أي يوم من أيام الأسبوع هم، ولكنه كان يريد تعليماً آخر،

أراد أن يشرحه لمحدثه، ولكن صاحبه بادر بقوله:

وهذاك انت ياخوي ثني - لله الحمد والشكر - تقرأ وتكتب وفيك البركة.

فترك ثني إيضاح ما كان أراد أن يقوله لأنه وجد أنه لا فائدة من الشرح لصاحبه.

كان ثني ينادي بالتعليم المدني الموجود مثله في فرنسا، وأن يصحب ذلك تغير اجتماعي وسياسي يقوم على هدم القديم كله، وكان الهدم عنده يسبق البناء، فقد سيطرت على ذهنه فكرة تقول: إن مرجع كل هذا: التخلف الموجود، وسيطرة الجهل.

والمرض هو يسبب التمسك بالعادات والتقاليد الموجودة؛ سواء منها ما كان صالحاً أم غير صالح.

وكان هذا أيضاً سبب شقائه أنه لم يجد من يوافقه عليه، ولذلك كان يزداد لجاجة وتشبثاً برأيه بدلاً من أن يلين لآراء الآخرين، أما زوجته المسكينة التي لم يكن يحبها من قبل كما لم يكن يبغضها، لأنه لم يكن فيها ما يسبب أحد هذين الأمرين.

فإنه كان يقارن بينها وبين الباريسيات اللاتي عرفهن، فتتمثل له زوجته بجسمها الجاف الخشن، وبخاصة أطرافها ورجليها اللتين لم تعرفا النعلين، ورأسها الذي تفوح منه رائحة السمن المتغير، لأنها كانت تدهنه بسمن قديم.

وأشد ما عليه ثوبها الذي لم يعرف الصابون قط، وإنما كان يرى

الماء في أوقات متباعدة.

ثم طريقة كلامها، وقسوة حديثها، واستهزاؤها من كلامه عندما تسمعه يتحدث عن نساء الإفرنج الكافرات.

التخلص من الماضي

تخلص ثني من أشياء كثيرة كانت تربطه بماضيه، أو شعر بأنها كذلك، ومنها أنه باع فور عودته جميع الكتب الدينية الموجودة لديه، وكان يعجب من أن يجد لها مشترياً بل كان في قرارة نفسه يقول:

عجل بيعها - يا ثني - قبل ما يهونون الناس عنها مثل ما هونت أنت.

وباع - ولكن بدون ثمن - أصدقاءه القدامى، ومنهم شيخه الذي كان قد تعلم عليه وهو مطوع، ثم صار شيخاً، أي قاضياً للبلد، وكان سعيه سبباً في إرسال والده منصور المنثني للعلاج في الخارج على نفقة الحكومة، والحقيقة أنه لو كان يعرف ما سيحصل لثني من هذا التغير والتبدل لما أشار بسفر والده للعلاج، بل ترك ذلك لله الذي لم ينقطع لطفه عن العباد، وقد وسعه ما وسع آباءه وأجداده من قبل.

والأدهى من ذلك عند شيخه أنه رأى أن (ثنياً) لم يكن يقترب من الصلاة في الصف الأول كما كان يفعل من قبل، وإنما كان يأتي متخلفاً حتى تفوته ركعة أو ركعتان من الصلاة.

وكان ثني يذهب للمسجد لدواعٍ اجتماعية، وليس من أجل التقرب إلى الله بأداء الصلاة، لأن الذي لا يصلي في المسجد يكون ساقطاً في أعين الناس، وترد شهادته عند القاضي، بل إن معاملاته في البيع والشراء تتأثر بذلك.

وذلك لأن الذي لا يصلي لا يخاف الله، و(اللي ما يخاف الله خف منه) كما يقول مثلهم العامي.

وهكذا عاش (ثني) المطوع في بلده، لم ينتفع بأحد، ولم ينتفع به أحد.

فهرس

التحول الكبير: ٧
السفر: ١١
البرزخ: ١٥
العالم الجديد: ٢٩
في مدينة باريس: ٣٥
عالم الآلام والأحلام: ٣٧
المنزل الجديد: ٣٩
الحمام الإفرنجي: ٤١
رجوع الشيخ لطفولته: ٤٥
العيش الرغيد: ٤٩
جوزفين: ٥١
الغرام: ٥٧
الانقلاب: ٦٧
العالم المفترس: ٧١
الانغماس في الوحل: ٨٩
المصيبة الكبرى: ٩١
العودة إلى الوطن: ٩٥
التخلص من الماضي: ١٠٣